الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم -

كلية الآداب والفنون

قسم الأدب العربي

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية و آدابها

تخصص الدراسات الأدبية المقارنة

عنوان المذكرة

صورة الأنا و الآخر في شعر محمود درويش

إعداد الطالبة:

- قشقاش حورية

إشراف الأستاذة:

د/ طانية حطاب

السنة الجامعية: 2015*2016م

مقدمة:

أخذ موضـوع الأنا والآخر أهمية بارزة في الكتابات الفكرية والنقدية وفي شتى العلوم الإنسانية ، باعتبار أن الكشف عن الأنا لا يأتي إلا من خلال الآخر الحاضر باستمرار معها و فيها، وهي علاقة من شأنها أن تنهض على افتراض الغيرية التي يتألف منها الوجود الإنساني المتضمن دوما قطبين مختلفين.

بل إن القضية ما فتئت تتوالد وتتعقد حتى صار من العسير تحديد صفة الآخرية، في عصر يهدف إلى إلغاء الحدود الفاصلة بين الأنا والآخر واختزالها ضمن نطاق واحد هو الأنا الجمعية ، بعد العمل على تذويب مقومات الأنا لصالح قيم الآخر ، الأمر الذي يطرح العديد من مفارقات الهوية و الانتماء بالنسبة إلى الأنا نتيجة شعورها الحاد بفقدان خصوصيتها في علاقتها الجدلية مع الآخر.

وكان وقوفي عند الشاعر محمود درويش كنتاج يمثل هذه البنية ، فقارئ أعمال هذا الشاعر يدرك أنها تستجيب بشكل واضح لدراسته من هذا النوع، حيث يتجه شعره نحو رسم صور محددة للأنا والآخر إضافة إلى أنه تجربة قائمة بذاتها تتقاطع مع التجارب الأخرى في الوقت الذي تحافظ فيه على خصوصية الرؤية وتفردها، وعلى هذا الأساس فقد عنونت مذكرتي بـ"صورة الأنا والآخر في شعر محمود درويش".

وكان على البحث أن يجيب عن الأسئلة الآتية:

ما هوية الأنا التي حاول محمود درويش أن يؤسس لها في شعره؟

وبعبارة أدق، كيف يعبر درويش عن عملية وعيه للأنا والآخر؟

كل هذه الأسئلة وغيرها ظلت تراودني وتلح علي بحثا عن إجابات شافية، وذلك الأمر الذي أملى علي خطة، وتقوم على مدخل وفصلين مع مقدمة وخاتمة.

أعطيت المدخل عنوان "علاقة الصورائية بالأدب المقارن" والتي كان يجدر بي من خلالها تعريف الصورائية ونشأتها وعلاقتها بالأدب المقارن وهي مجالات مثيرة للغاية، ويبحث هذا المدخل كذلك في الصورائية عند الباحثين العرب وأسباب تباين صورة الأنا عن الآخر ودراسة صورة الآخر في الأدب العربي.

أما الفصل الأول: تناولت فيه "محمود درويش الإنسان والشاعر" وفي هذا الفصل تناولت التعريف بالشاعر وعاطفته وأهم المراحل الشعرية عنده ثم تطرقت إلى الخصائص الفنية المشتركة في شعره.

وعقدت فصلا ثانيا: موسوما "تجليات صورة الأنا والآخر في شعر محمود درويش" وهو من شأنه أن يعطينا ملامح دقيقة عن الأنا التي تجسدت عند الشاعر محمود درويش ونتعرف عليها وعلى طبيعتها وفي المقابل كيف كانت نظرة الآخر "اليهودي" تجاه هذه الأنا المتألمة وذلك من خلال فقدان الهوية والقتل والتشرد والبؤس والحرمان والسجن.

وانتهى بي المطاف إلى خاتمة أوجزت فيها أهم النتائج التي توصلت الدراسة إليها من عمق العلاقة التي جمعت الأنا بالآخر في شعر محمود درويش لأكتشف رؤية الشاعر التي بنى عليها عمله الإبداعي والتي تتجسد عند درويش.

من هذا المنطلق، كان يستوجب علي أن أستعين بالإجراءين الوصفي والتحليلي لأتمكن من دراسة هذا الموضوع من كل جوانبه.

وفي كل ذلك استفدت كثيرا من بعض الدراسات التي تناولت شعر محمود درويش من زوايا مختلفة من البحث مع الإستعانة بالمراجع التي تقف عند إشكالية الأنا والآخر ككتاب أحمد عبد الحليم عطية: جدل الأنا والآخر، بالإضافة إلى كتاب رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة وديوان محمود درويش الأعمال الكاملة وأقف عند الصعوبات التي اعترضتني أثناء البحث والدراسة فإن أول صعوبة واجهتني تتعلق بطبيعة الموضوع نفسه وأقصد تشابكه مع باقي فروع المعرفة الأخرى إضافة إلى قلة المراجع التقنية الخاصة بصورة الأنا والآخر، وإن وجدت فهي دراسات فكرية أكثر منها أدبية.

وفي الختام، هذه أولى خطواتي على مدراج البحث العلمي وهي لا تخلو من عثرات، فإن أصبت فبفضل من الله ورسوله وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مدخل

- (علاقة الصورئية بالأدب المقارن)
- تعريف الصورائية
- نشأة الصورائية
- علاقة الصورائية بالأدب المقارن
- الصورائية عند الباحثين العرب
- أسباب تباين صورة الأنا عن الآخر
- دراسة صورة الآخر في الأدب العربي

1- مفهوم الصورائية:

يقول عز وجل: " كُلُ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا، اليَوْمَ تُجْزَوْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونْ ".[1]

لقد خلق الله عز وجل عباده وميز بينهم، إذ نجده عز وجل يصرح بذلك تصريحا واضحا. فالاختلاف بين الأمم يكون في أخلاقها و طبائعها ، كما تختلف في مناهي الحياة كلها، ومن هذا فإن عقليات الأمم تختلف اختلافا واضحا في نفسيتها وسلوكها، فإذا أردنا التعمق في الآداب القومية المختلفة نجد أن كل أدب يحتوي على نوعين من الصور:

- نوع يتعلق بصورة كل شعب في أدبه القومي.
- ونوع آخر يتعلق بصورة الشعوب والأمم الأخرى في الآداب الأجنبية.

وهذه الدراسة بطبيعتها تتخطى حدود الآداب القومية فقد لقت اهتماما كبيرا من قبل علماء الأدب المقارن في وقت مبكر، وقد وضعوها كمبحث ضمن ميادين البحوث المقارنة وقد أطلقوا عليها تسمية "الصورلوجيا" والتي تعتبر فرعا من فروع الأدب المقارن، بدأت تظهر في السنوات الأخيرة من القرن العشرين بسبب مناخ التعايش السلمي بين الأمم والحضارات وتختلف الصورة التي يقدمها الأدب القومي للشعوب الأخرى حيث نجدها في كثير من الأحيان تحمل في طياتها سوء التفاهم بين الدول إما بالإيجاب أو السلب ويتجسد ذلك من خلال رؤية غير موضوعية للذات Le moi والآخر L'autre.

وفي هذا السياق تنشأ الصورة عن وعي بالأنا في مقابل الآخر، فهي تعبير أدبي وجزء من الخيال L'imaginaire الإجتماعي والفضاء الثقافي والإيديولوجي فالأنا يقف في مقابل الآخر الذي قد يكون معرضا له أو خصم مكملا له.[2]

ومن هذا المنطق نستطيع القول أن الصور التي أنتجتها الآداب الأجنبية هي بمثابة تزييف لحقائق الشعوب والحضارات، مما ولد سوء الفهم بين الدول والمجتمعات وهذه

[1] سورة الجاثية الآية 28

[2] عبود عبده، الأدب المقارن مدخل نظري ودراسات تطبيقية، مدرية والمطبوعات الجامعية، مطبعة المدينة، سوريا 1998/1997، ص371

الإختلافات وسوء الفهم أفرز نتائج سلبية وأخرى إيجابية كما استطاعت أن ترد على الكثير من التساؤلات التي طرحت حول العلاقة الرابطة بين الصورائية ودراسة الأدب وعن قدرتها حول معالجة وفهم الأعمال الأدبية وقد ردت على كل من نفى وجود علاقة بينها وبين الأدب.[1]

2- نشأة الصورائية وبوادرها الأولى:

إن البدايات الأولى لنشأة الصورائية تعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما قامت الأديبة الفرنسية "مدام ديستال" Mme Destail بزيارة دامت وقت طويل إلى ألمانيا، وقد تزامن ذلك وتصاعد الصراع بين الشعبين الفرنسي والألماني.

وعند إقامتها لاحظت ملاحظة جلبت اهتمامها ألا وهي ذلك التناقض بين ما يردده الفرنسيون عن الشعب الألماني وبين حياة الترف والرقي الذي ينعم بها الشعب الألماني، فالفرنسيون يصرحون أن المجتمع الألماني يتميز بالهمجية والبذاءة سواء في اللغة وأنه لا وجود لأي آثار أدبية أو ثقافية تستدعي العناية والاهتمام وهذا للحط من مكانتهم وتحقيرهم إذ أن السبب واضح ألا وهو الاستعمار في حين أن "مدام ديستال" رأت أن الشعب الألماني يمتاز بكل الصفات الجميلة المعاكسة لكل ما ادعاه الفرنسيون وقد فوجئت الكاتبة الفرنسية بمناقب الشعب الألماني من طيبة واستقامة وصدق وجمال طبيعة ألمانيا، ولاسيما نهر "الراين" والغابة السوداء وبغنى الأدب الألماني والمستوى الرفيع الذي بلغته الثقافة الألمانية.[2]

وقد كانت سلسلة من الرسائل بمثابة قاعدة لدراسة الصور، نذكر منها رسالة أندريه مونشوا، (ألمانيا أمام الآداب الفرنسية من 1914 إلى 1935 تولوز 1955)، ورسالة ماريوفرانسوا غويار (صورة بريطانيا العظمى في الرواية الفرنسية من 1914 إلى 1940، وديديه 1954) ورسالة شوفال (ألمانيا والحرب 1965) ورسالة ميشال كادو (صورة روسيا في الحياة العقلية الفرنسية 1839-1856)، بالإضافة إلى بعض الرسائل

[1] المرجع نفسه، ص372
[2] عبود عبده، المرجع السابق، ص 373

حتى ظهور مايوا فرانسوا غويار الذي اهتم برسم الحدود بين المؤرخين والمقارنين الذين يعطيهم مهمة النقل الأدبي بالصور فإنه من الواضح أن دراسة الصور كانت مشتركة بين المعارف قبل الأدب.[1]

3- علاقة الصورائية بالأدب المقارن:

إن تعريف الأدب المقارن أولا يساعد على ربطه بالصورائية إذ أنه يعتبر أفقا واسعا يدرس نقاط تقاطع الأدب في لغات مختلفة إلى جانب ظاهرتي التأثر والتأثير وننبه إلى أن ميدان الأدب المقارن أوسع مما يبدو ولأول وهلة هذ لا يقتصر على دراسة الإشعارات الصريحة وانتقال الأفكار والموضوعات والنماذج الأدبية لأشخاص من أدب إلى آخر بل يشمل أيضا دراسة نوع التأثر الذي اصطنع به الكاتب في لغته التي يكتب بها بعد أن استفاد من أدب آخر.[2]

ومن هنا نحاول الاقتراب من العلاقة التي تربط الصورائية بالأدب المقارن الذي يتناول المواضيع الأدبية في أدبين أو دراسة الشخصيات أو دراسة نشأة الأدب المقارن.[3]

ومن خلال هذا نستنتج أن مبحث الصورائية يندرج ضمن الأدب المقارن باعتبارها مقاربة من مقاربته المتعددة وأن دراسة الصورائية تعتبر من أبرز حقول الأدب المقارن نظرا لما تعطيه من أهمية لأدب آخر، فهي تعبير عن ثقافة ومجتمع بأكمله إلى جانب حقول أخرى تعد من مجالات البحث المقارن ونذكر منها حقل التأثير والتأثر وحق1ل الموضوعاتية Thematologie وحقل الترجمة الأدبية Traduction littérataire.

[1] دانيال هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا1997، ص 89

[2] محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، لبنان، 1999، ط 5، ص 382

[3] المرجع السابق، بتصرف ص 383

4- الصورائية عند الباحثين العرب:

لقد أصدر عبود عبده في كتابه "الأدب المقارن" "مدخل نظري ودراسات تطبيقية" ملحقا عن الباحث المقارني "سعيد علوش" تناول فيه الصورائية عند العرب ومساهمتهم في التطوير وقد أعطى نماذج من هؤلاء الباحثين في مختلف الدول العربية المهتمين بهذا المجال وهذا لإطلاعهم على ماجاء به الغربيون الذين كتبوا ضد العرب والإسلام كدين.

وأول من وقف على صورة الشرق في الأدب الفرنسي هو "جوزيف أسعد داغر" عرض أطروحته "الشرق في الأدب الفرنسي لما بعد الحرب" ولقد ناقش "عبود عبده" هذه الأطروحة وقال: "لقد منح جوزيف أسعد داغر طويلا من المصادر الفرنسية التي عالجت الصورولوجيا، معتبرا العمل الذي أنجزه مرآة عاكسة بإخلاص لردود الفعل والشائعات، التي كانت أحداث الشرق ما بعد حرب فرنسا".[1]

وبعد مرور حوالي عشر سنوات ظهر الباحث المقارني "حسن النوتي" والذي ناقش أطروحته "الشرق الأدنى في الأدب الفرنسي" وقد تطرق في موضوعه لفكرتين أساسيتين وهما:

- إبراز قيمة الموضوع بكل سعتيه وبمختلف تعقيداته.
- التأكيد على أن الموضوع يحمل الطابع الغرائبي للشرق الأدنى.[2]

ففي هذه الأطروحة يمر "حسن النوتي" بمراحل تطور الشرق الأوسط في الأدب الفرنسي منذ بدايات الرومانسية إلى غاية 1914 ومن الملاحظ طغيان الخطاب الإيديولوجي على الخطاب الأدبي، فهو يقدم أعمال الفرنسي الذين رحلوا إلى الشرق وعرفوا عنه الكثير لكنهم لو يقروا بالحقيقة بل زيفوها في كثير من الوقائع ثم يعترف "حسن النوتي" لكن اختلف عنه لمعالجته الناحية الإسلامية في الصورة حيث خصص جزءا كبيرا سماه "الرومانسية الغربية في الإسلام" أوضح فيه صورة الإسلام في الدول الغربية وهو يرى أن تسمية الشرق الأوسط والشرق الأدنى والعالم العربي تسميات لا

---

[1] عبود عبده، الأدب المقارن مدخل نظري ودراسات تطبيقية، ص382

[2] المرجع نفسه، ص 383

تعطي المعنى الحقيقي للديانة الإسلامية، إن الباحثين "عبد المنعم شحاتة" و"عبد الجليل الحجمري" هما من استطاعا أن يتقيدا المنهج الصحيح لمعالجتهما إشكالية الصورائية، فقد أثمرت جهودهما صورائية حديثة بكل معنى الكلمة.[1]

إذ قام "عبد المنعم شحاتة" بوضع خطة تساعد الباحث المقارن في بحوثه المقارنية وأساس هذه الخطة هي "علم القص الميثولوجي" تظهر هذه المنهجية كممارسة تيحث عن بلوغ الخبر الميثي الذي يشمل عليه كل قص.

هذا من جهة أما "عبد المنعم الحجمري" فقد قام بتمييز الشرق عن الغرب والتي أثارت الحقد والحماس، ولم تثر أبدا اللامبالاة.[2]

5- تباين صورة الأنا عن الآخر:

حين نتأمل الصورة التي يشكلها شعب من الشعوب في أدبه القومي (أي صورة الأنا) نجدها تختلف عن تلك الصورة التي تشكلها آداب أجنبية له (أي صورة الآخر)، ويمكن رد هذا التباين إلى ما يلي:

1- إن صورة الأنا تستند إلى تجارب وخبرات غنية عاشها الأديب في المجتمع الذي يصوره عن كثب، إذ ولد ونشأ في ذلك المجتمع وهو يعرف العديد من أبنائه، وتربطه ببعضهم علاقات قرابة وصداقة وغيرها من العلاقات الاجتماعية والنفسية وهكذا فإن المعرفة العميقة والشاملة بالمجتمع الذي يصوره الأديب تجعل الصورة التي يرسمها في أدبه غنية ودقيقة وتفصيلية، وذلك خلافا لصورة يقدمها أديب لشعب أجنبي لا يعرفه حق المعرفة.[3]

2- أما السبب الثاني فيتمثل في أن الأديب الذي يصور مجتمعه هو ابن ذلك المجتمع وهو مرتبط به ماديا واجتماعيا ونفسيا وأخلاقيا.

---

[1] المرجع السابق، ص 388

[2] نفسه ص 388

[3] دافي ماري مادلين، معرفة الذات، ترجمة نسيم نصر، منشورات عويدات، لبنان، فرنسا- ط 1، 1983، ص 942

فإن من المعروف أن الأديب الحق يحمل هموم مجتمعه ويحرص عليه كحرصه على نفسه، فهو ملاذ أفراحه وأحلامه تجتمع فيه ذاكرة الماضي إلى جانب رؤى المستقبل. لذلك حين يقدم صورة لمجتمعه تكون مطبوعة بطابع العلاقة الاجتماعية والنفسية والأخلاقية الوثيقة التي تشد الأديب إلى مجتمعه وما يشكل هويته".[1]

وقد يرسم الأديب أحيانا صورة سلبية لمجتمعه، وهذا ما نلاحظه في كثير من الأعمال الأدبية، لكننا نجد هذه الصورة رسمت بأنامل محبة، فنلمح فيها رغبة عارمة في الإصلاح والتغير نحو الأفضل، إذ لا يعني دائما تصوير القبح بالإساءة إلى المجتمع وهدمه، وقد لا ينطبق هذا الرأي على صورة يرسمها أديب لمجتمع لا تربطه مشاعر الإنتماء والتوحد، كما أنها لا تستند في أغلب الحالات إلى أساس صلب من التجربة والمعرفة والإحاطة بأوصاع ذلك المجتمع، فهي أشبه بصورة سياحية عاشها الأديب عبر أسفار أو رحلات قام بها إلى بلد أجنبي.[2]

وقد لا نجد الصورة مرسومة على أساس المعرفة المباشرة للبلد الأجنبي، إذ كثيرا ما ترجع تلك الصورة إلى مطالعات الأديب أو إلى أحاديث سمعها حول البلد الأجنبي مما يؤدي بالصورة إلى الإجفال في الأوهام وقد وجدنا قسما كبيرا من قدموا في أعمالهم صورة للشرق العربي الإسلامي دون أن تطأ أقدامهم على ذلك الشرق الذي صوروه كالأديب الألماني غوته Gouth الذي عرف الشرق عبر كتاب "ألف ليلة وليلة" والشعر القديم (المعلقات، القرآن الكريم وكتب التاريخ).[3]

إن أهم ما ينبغي التأكيد عليه هنا، هو أن الصورة التي يرسمها أديب ما لمجتمع أجنبي لا تعبر عن مشكلات ذلك المجتمع وهمومه وقضاياه، ولا تنبع من التزام الأديب حيال المجتمع الأجنبي ومن رغبته في إصلاحه أو تغيره نحو الأفضل وهي ليست وليدة توحد الأديب مع ذلك المجتمع الذي لا يرتبط به قوميا، فالصورة التي يرسمها الأديب

---

[1] أحمد عبد الحليم عطية، جدل الأنا والآخر (قراءات نقدية في فكر حسن حنفي)، دار عبد ربه، مصر، ط 1، 1997، ص 166

[2] المرجع نفسه، ص 167

[3] نفسه، ص 168

لمجتمع أجنبي تنبع أولا وقبل كل شيء آخر من مشكلات الأديب نفسه ومشكلات قومه في مواجهة الآخر.[1]

وبالتالي تلبي الصورة الأدبية في الدرجة الأولى حاجات نفسية مثل (الهروب إلى عالم أكثر جمالا أو أكثر روحانية أو فنية مثل البحث عن عالم أكثر براءة وفطرة والذي يعد حافزا للإبداع.

6- دراسة صورة الآخر في الأدب العربي:

رغم الإهتمام الذي تبديه الجامعات العربية بمادة الأدب المقارن، إذ أصبحت مقررا أساسيا في أقسام اللغة العربية والأجنبية، فإن المكتبة العربية مازالت تعاني نقصا في الدراسات المقارنة، لهذا لن نستغرب ندرة المؤلفات في مجال دراسة صورة الآخر، التي هي فرع من فروع الأدب المقارن، وإن كنا قد احظنا في الآونة اندفاع بعض طلاب الدراسات العليا لتقديم بحوثهم في هذا المجال، خاصة بعد حوادث أيلول (2001) لا شك أن مثل هذا الإندفاع أمر يثلج الصدر، لكن شرط أن يقدم الباحثون دراسات رصينة، لهذا يحسن بنا أن نشير إلى بعض المهمات التي نتمنى على الباحثين في مجال دراسة الصورة أن يضعوها نصب أعينهم:[2]

الأولى: دراسة صورة الأنا العربية في الآداب الأجنبية.

الثانية: دراسة صورة الآخر وفق منهج علمي متوازن يحاول أن ينأى عن التشويه الإيجابي والسلبي معا.

إن المهمة الأولى من دراسة الصورة يساعدنا على التعرف على ذواتنا بشكل أفضل، لأن أشكال التشويه التي تنطوي عليها صورة العرب في الآداب الأجنبية كثيرا ما تكون على صلة، حتى لو كانت ضئيلة.[3]

إذن من خلال تأمل ودراسة صورتنا في الآداب الأجنبية نستطيع أن نفهم أنفسنا بشكل أفضل، سواء كانت هذه الصورة منبهرة بالأنا العربية أم منشغلة عليها عندئذ تكون

---

[1] نفسه، بتصرف، ص 169

[2] عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط 1، 2000، ص408

[3] المرجع نفسه، ص 409

الآداب الأجنبية مرآة نرى فيها أنفسنا ونتعرف بفضلها على نقاط ضعفنا التي نتهرب منها، ولا تروق لنا، لكن بات من الضروري أن نتعرف عليها، كي نتمكن من تغيير ذواتنا وتطوير حياتنا وبالتالي تغير صورتنا في الخارج.[1]

ونلاحظ أن مثل هذه الدراسات خطوة أولى لمعالجة نواقصنا من جهة، ومن جهة ثانية فضح التشوهات التي تتعرض لها صورتنا في الغرب، دون أن نلجأ إلى التزييف، أو الكذب على الذات قبل الآخر، فنقدم صورتنا بطريقة أقرب إلى الواقع.

أما المهمة الثانية (دراسة صورة الآخر في الأدب العربي) فيفيدنا كما أفادتنا دراسة صورة العرب في أدب الآخر في فهم الذات والآخر معا فهي تعكس أشكال التشويه نفسها، وبذلك نستطيع أن نتعرف على بعض الإشكاليات الفكرية والاجتماعية والنفسية التي نعانيها نحن العرب في مجال رؤية الآخر، التي كثيرا ما تكون انعكاسا لأخطاء نرتكبها في الفهم والتحليل.[2]

هنا تبرز أهمية دراسة صورة الآخر، إذ تبرز لنا خطر الصورة النمطية التي تنأى عن الواقع، وتغرق في رؤيتها مما يزيد من سوء التفاهم مع الآخر، ويجعل الذات متقوقعة في أوهامها وتخلفها لذلك لن ينظر أصحاب هذه الصورة إلى تفوق الغرب على المستوى العالمي في القرنين الأخيرين ولن يهتموا بأسبابه، بل هم غير معنيين بأسباب انتشار أسلوب الحياة الغربية في الشرق.[3]

أما المهمة الثالثة (دراسة صورة الآخر وفق منهج علمي متوازن) يلتفت إلى جماليات الصورة بقدر ما يلفت إلى دلالاتها الفكرية والاجتماعية والنفسية وقد لاحظنا إهمال الجانب الجمالي في كثير من الدراسات الاجتماعية أو الفكرية أو النفسية، لذلك نحن أحوج ما نكون إلى دراسات مقارنة تستطيع أن تقيم توازنا بين الانفتاح الفكري على الآخر والانفتاح الجمالي على النص الأدبي.[4]

[1] المرجع نفسه، ص 410
[2] دانيال هانري باجو، ترجمة غسان السيد الأدب العام، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1997، ص 69
[3] عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، ص412
[4] المرجع نفسه، ص 413

وقد بدأنا نلاحظ رغبة بعض دارسي الأدب المقارن في أن تصبح دراساتهم أقرب إلى العلم الإنساني، ومن أجل تحقيق هذه الرغبة في دراسة الصورة نجدهم يستخدمون مناهج متعددة، كالبنيوية والتاريخية والتحليل النفسي، تساعدهم على إضاءة جوانب غير مفهومة في النص الأدبي، مما يسهم في تفهم الذات والآخر بشكل أفضل.

فمثلا التحليل النفسي يساعدنا على تفسير أسباب ورود الفضاء الأجنبي لدى أديب ما مثلا إسبانيا لدى فيكتور هوغو Victor Hugo مثلا فنعرف أن ذلك راجع إلى إنبعاث مشاعر تعود إلى حقبة محددة من طفولته حيث عاش في إسبانيا.[1]

هنا يحسن بنا أن نشير إلى أن الدارس في الأدب المقارن، وخاصة في مجال صورة الآخر من الضروري أن يعيد فحص موقفه الفكري ومنظومة قيمة، فلا يكتفي بتجديد معارفه، وتطوير أدواته، بل عليه أن يمتلك القدرة على النقد تجاه ممارسته الثقافية وتأملاته الفكرية، الذي يعد أساس الإبداع الفكري والأدبي، فينقذ نفسه من التكرار الممل حتى باتت كثير من المؤلفات العربية أشبه بالكتب المترجمة، التي تغلى الرؤية النقدية، على حد تعبير عبد الوهاب المسيرى.[2]

[1] المرجع نفسه، ص 414

[2] نفسه، ص 415

الفصل الأول

- (محمود درويش الإنسان و الشاعر)
- تعريف بالشاعر (سيرته الذاتية)
- عاطفته
- مراحل محمود درويش الشعرية
- الخصائص الفنية المشتركة في شعر محمود درويش

التعريف بالشاعر: (السيرة الذاتية للشاعر محمود درويش)

هو سيد أحمد درويش ولد في آذار (مارس) من عام 1941 شرق عكا، تلقى تعليمه الأول في قريته "البروة" وتابع دراسته الثانوية في قرية كفرياسين، إنظم حينها إلى الحزب الشيوعي وسجن بسبب نشاطه السياسي عدة مرات، ولم يكن قد تجاوز العشرين بعد.[1]

يقول محمود درويش في حديث لإحدى الصحف الناطقة بالعربية "زوهديريخ" وهي تابعة للحزب الشيوعي الإسرائيلي في قرية جميلة وهادئة، ... وكنت إبنا لأسرة متوسطة الحال عاشت في الزراعة، عندما بلغت السابعة، وقفت ألعاب الطفولة... أذكر ذلك تماما في إحدى ليالي الصيف أيقظتني أمي فوجدت نفسي مع مئات من سكان القرية أغدو في الغابة كان الرصاص يتطاير فوق رؤوسنا ولم أفهم شيئا مما يجري، بعد ليلة من التشرد والهروب وصلت مع أحد أقاربي الضائعين في كل الجهات إلى قرية غريبة ذات أطفال آخرين، تساألت بسذاجة أين أنا؟ وسمعت للمرة الأولى كلمة "لبنان".[2]

وقعت هذه الحادثة بعد الإحتلال الإسرائيلي لفلسطين، والذي عاش على إثره "درويش" أشد المعاناة ويتحدث عن هذه المعاناة ويتحدث عن هذه المآسي التي عاشها معبرا عن شعار السلطة اليهودية فيقول "اكتب ما تشاء وادفع الثمن كما تشاء... والثمن هو فقدان الوظيفة... الإضطهاد... الحجز في البيت... السجن وهكذا أصدرت السلطات العسكرية أوامر الإقامة الإجبارية ضد الشعراء العرب التقدميين دون استثناء".[3]

ثم رحل "درويش" إلى موسكو لمواصلة تعليمه العالي، وأمضى فيها ثلاث سنوات ثم عاد بعدها إلى فلسطين ليعمل مشرفا على تحرير مجلة الجديد الشيوعية، ولكنه لم يمكث طويلا حتى انتقل إلى مصر في فبراير عام 1971 ثم انتقل بعد ذلك إلى لبنان حيث عمل هناك في مؤسسات النشر والدراسات التابعة لرابطة الكتاب الفلسطينيين، ومحررا لمجلة الكرمل، ثم اظطر إلى الرحيل من لبنان عقب الإحتجاج الاسرائيلي سنة 1982، وتنقل في أرجاء أوربا، بين عدة عواصم، ليستقر به المطاف في العاصمة الفرنسية باريس، ثم شد الرحال مجددا إلى رام الله فترة من الزمن وبقي متنقلا بينها وبين العاصمة الأردنية عمان.[4]

---

[1] حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1991،1، ص11

[2] المرجع نفسه، ص13

[3] جمال بدران، محمود درويش شاعر الصمود والمقاومة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1999، ص100

[4] المرجع نفسه، ص 102، 103

ثم وقع حدث طارئ جرى في حياة الشاعر وهو العملية الجراحية التي أجريت في شرايينه في "فيينا" عاصمة النمسا عام 1999، هذا الحدث وضعه مباشرة أمام الموت

رحل "درويش" عن الحياة بعد حياة حافلة بالصراع والأمل والطموح، توفي في الولايات المتحدة الأمريكية، يوم السبت التاسع أوت 2008، بعد إجرائه لعملية القلب

المفتوح في المركز الطبي في "هيوستن" وقد دخل بعدها في غيبوبة وبعد أن قرر الأطباء نزع أجهزة الإنعاش توفي.

وأعلن رئيس السلطة الفلسطينية "محمود عباس" الحداد ثلاثة أيام في كافة الأراضي الفلسطينية حزنا على وفاة الشاعر الفلسطيني واصفا "درويش" بعاشق فلسطين ورائد المشروع الثقافي الحديث والقائد الوطني اللامع والمعطاء.[1]

وقد وري جثمانه الثرى في الثالث عشر أوت في مدينة رام الله حيث خصصت له هناك قطعة أرض في قصر رام الله الثقافي وتم الإعلان عن تسمية القصر بـ"قصر محمود درويش" للثقافة وشارك في جنازته الآلاف من الشعب الفلسطيني... على رأسهم السلطة الفلسطينية.[2]

ومن أبرز ما كتب "محمود درويش":

أولا الدواوين الشعرية:[3]

- عصافير بلا أجنحة 1960
- أوراق الزيتون 1964
- عاشق من فلسطين 1966
- آخر الليل 1967
- يوميات جرح فلسطيني 1969
- العصافير تموت في الجليل 1970
- أحبك أو لا أحبك 1973
- تلك صورتها وهذا انتحار عاشق 1975
- أعراس دار العودة 1977

[1] رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتملة، دار الهلال، ط2، 1971،ص96

[2] المرجع نفسه، ص97

[3] محفوظ كحوال، أروع قصائد محمود درويش، نوميديا للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ص3

- مديح الظل العالي 1983
- حصار لمدائح البحر 1984
- هي أغنية هي أغنية 1986
- ورد أقل 1986
- أرى ما أريد 1990

وحصل درويش على العديد من الجوائز العربية والعالمية:[1]

- جائزة "لوتس" عام 1969م
- جائزة "البحر المتوسط" عام 1980م
- جائزة لوحة "أوربا للشعر" 1981م
- جائزة "ابن سينا" في موسكو 1982م
- جائزة "العويس الثقافية" 2004م

كما ترجمت قصائده إلى لغات عدة كما غنت قصائده من قبل المطربين أمثال "فيروز"، "ماجدة الرومي"، "مارسيل خليفة".
وهكذا ذاع اسم "محمود درويش" كشخصية عربية نضالية ضد الإحتلال، يقف كالشجر ويموت واقفا لا يندم على صموده حتى إذا أريق دمه.[2]

---

[1] محفوظ كحوال، المرجع السابق، ص4

[2] المرجع نفسه بتصرف، ص5

عاطفته:

محمود درويش شاعر عاطفي بالمعنى العميق لهذه الكلمة وهو شاعر تنبع موهبته من محبة الحياة وعشق الجمال في الطبيعة والإنسان، وليس شاعرا تنبع موهبته من الكراهية أو النقمة أو اليأس، إن شعر محمود درويش شعر غني بالعاطفة الإنسانية في كثير من قصائده، وهو يعبر عن هذه العاطفة، عاطفة الحب، تعبيرا جديدا ومتنوعا ومبتكرا في صوره وخيالاته المختلفة، إنه عاشق من الدرجة الأولى يملأ العشق قلبه بالعواطف الخصبة الحارة وهي عواطف تفيض من هذا القلب على كل قضية أخرى تتصل بحياة الشاعر أو بفكرة.[1]

وبالتالي نستشف أن العاطفة في شعره ليست عاطفة مجردة، لأنها ترتبط كل الإرتباط بالقضية التي يعيش معها في كل لحظة من حياته وهي قضية وطنه، كما أن هذه العاطفة تتأثر كل التأثير بالجو الخانق التعيس الذي تعيش فيه الأقلية العربية داخل الأرض المحتلة، فالحب في شعر محمود درويش هو زهرة يحيط بها كثير من الشوك.[2]

تشهيت الطفولة فيك

لابد لي أن أرفض الورد الذي يأتي من القاموس أو ديون شعر ينبت الورد على ساعد فلاح وفي قبضة عامل ينبت الورد على جرح مقاتل

وعلى جبهة الصخر...[3]

إذن الحب يستقى من المشاركة النضالية وليس من قراءة دواوين الغزل، أو البوح بمشاعر الشاعر تجاه هجران الحبيبة أو متعة الوصال، أو التغزل بالجمال الجسماني.

الناحية الثانية: هي أن الحب وسيلة للنضال وحافز للقتال وليس وسيلة للإرتخاء، إن محمود درويش يرى في الحب دافعا دافقا، وينقل المعركة معركة تحرر النفس من إطار العلاقات الخاصة إلى إطار الكفاح المشترك للجميع، من رجال ونساء لأن الحب الصحيح يستدعي تمردا أصح برأي الدكتور "الخطيب" ولعل هذه الفقرة الشعرية توضح جوهر هذه الحالة الوجدانية.

ولكنني لا أغني ككل البلابل

فأن السلاسل

---

[1] هاني الخير، محمود درويش رحلة عمر في دروب الشعر، موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث، مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، سوريا، ط1، 2005، ص9

[2] هاني الخير، المرجع السابق بتصرف، ص10

[3] مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، 1997-1998، ص105

تعلمني أن أقاتل
أقاتل.... أقاتل .....
لأنني أحبك أكثر.[1]
مذ طارت عصافير الربيع
تجرد الشجر
وصوتك كان، يا مكان،
يأتيني من الآبار أحيانا
نقيا هكذا كالنار
كالأشجار... كالأشعار ينهمر...[2]

ونلاحظ من خلال هذه الأبيات أن شعر محمود درويش أفضل مستنبت نمت فيه غراس قيم الحب الجديدة، لأنه خلط الحبيبة بالوطن وخلط مشاعر الثورة بمشاعر الحب، وجعل الإلتزام الثوري الفلسطيني أشبه بالتزام عشقي أبدي لا فكاك منه، لأن شرطه الموضوعي قائم دائما إلى جانب شرطه الأسطوري الكامن في الذاكرة الجمعية للإنسان، وفي الاعماق الخفية، لكل محب ثائر محب، على حد تعبير الدكتور الناقد "حسام الحطيب".[3]

ويمكن في هذا المجال تناول شعر "محمود درويش" من ناحيتين:

الناحية الأولى: تغير مفهوم الحب بسبب اعتبارات النضال. فالحب القديم الرخو يلغى عند المناضل، وكذلك جماليات الحياة تنتقل إلى مستوى جديد.

يتضح لنا من خلال هذه الأدبيات أن "محمود درويش" كان من هؤلاء ذوي النسيج القوي لا ينهار فيستسلم أو يغالي فيستعظم، كان صلبا في الشدائد شفافا في احتجاجاته، هادئ النبرة في انفعالاته وهذا ما كان يخيف السلطة الإسرائيلية منه، فقد كانت بعض أشعاره تترجم إلى العبرية فتلقى صدى لدى الجماهير، مما كان يهدد بإثارتهم على نظام دولتهم العنصرية لذا وجهت إليه أبواق النقد السلطوية، محاولة هدم آثارها وتشويه معانيها المترجمة.[4]

ويواجهنا سؤال: لماذا لم يهجر "محمود درويش" أرض الوطن السليب مثلما فعل غيره من الشباب الفلسطيني، وتتمثل الإجابة على ذلك في تأثير أبيه عليه، فكثيرا ما كان يلح عليه بالمكوث في الوطن، وعدم التخلي عن الأرض التي عاش وولد فيها حتى كلما

---

[1] المرجع نفسه بتصرف، ص106

[2] هاني الخير، المرجع السابق، ص11

[3] هاني الخير، المرجع السابق بتصرف، ص12

[4] حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص22

تسرب اليأس إلى قلبه وظن أن لا خلاص من المغتصب الصهيوني الذي أخذت أعداده تتزايد سنة عن سنة، يتردد في الخروج ويتراجع ولقد أشار الشاعر إلى هذا التأثير الأبوي عليه بالقعود، وساق ما قاله له أبوه بصريح القول في قصيدته "أبي".[1]

وأبي قال مرة:[2]
الذي ما له وطن
ما له في الثرى ضريح
... ونهاني عن السفر

وانصياع شاعرنا لأبيه في رفض الخروج من أرض فلسطين، له ما يبرره عمليا... إذ إن في إخلاء الأرض أمام طوفان اللاجئين اليهود القادمين من الشتات هو تسليم لهم بإمكانيات العيش في رغد والتربع على عرش فلسطين السليبة وبالتالي يكون خروج أهل فلسطين موقفا سلبيا أمام المد الصهيوني... لهذا اقتنع "محمود درويش" مبدئيا برأي أبيه وعاش متحملا القهر وعذابات السجون وعشرات من السنين.[3]

مراحل محمود درويش الشعرية: إن مسيرة محمود درويش الشعرية مرت عبر عدة مراحل والتي استقاها من وحي مشاهداته ومعايشته للواقع الأليم الذي يعصف بأرضه المحتلة ونجملها فيما يلي:

المرحلة الأولى: هي مرحلة الطفولة الفنية وسذاجة المعاني ويمثلها ديوانه الأول "عصافير بلا أجنحة" الصادر سنة 1960م وكان عمر الشاعر تسعة عشر عاما، ويقول الشاعر "درويش" عن هذا الديوان "إنه ديوان لا يستحق الوقوف أمامه، كنت في سنتي الدراسية الأخيرة، وكان الديوان تعبيرا عن محاولات غير متبلورة".[4]

ويلاحظ في هذا الديوان التعبير كان فيه مباشرا، والأفكار فيه محدودة، والصور الشعرية قائمة على البلاغة التقليدية، كما أن موسيقى هذا الديوان صاخبة، فالوطن عنده يمثل صورة أي وطن محتل في أي مكان من العالم، حيث يسود القمع وخنق الحريات العامة والظلم.

وهذا المقطع الشعري الذي نسجله هنا خير ما يمثل هذه المرحلة الشعرية الفتية، يقول الشاعر على لسان ذلك الطفل اللاجئ المشرد الذي لا يعرف بلاده:[5]

---

[1] المرجع نفسه بتصرف، ص23

[2] هاني الخير، المرجع السابق، ص15

[3] هاني الخير، المرجع السابق بتصرف، ص16

[4] حسين حمزة، دراسات في شعر محمود درويش، دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، حيفا، ط1، 2001، ص24

[5] المرجع نفسه، ص25

حدثوني ! علني أذكر شيء

من بلادي... عابقا في شفتيا
أنا لا أذكر "أيام الهنا"
فأعيدوها نداء صارخا
في شفاهي وأعيدوها دويا
أنا لا أذكرها، لكنها
أمل يغرق دنيا أبويا
ووميض ساخن في أعين
صمتها، ينطق شعرا عبقريا

المرحلة الثانية: تتمثل المرحلة الثانية في مسيرته الشعرية في ديوانه الثاني "أوراق الزيتون" الصادر سنة 1964م ففي هذا الديوان درجة عالية من النضج الفني والروح الفنائية العذبة وفي هذه المرحلة يتأثر محمود درويش بشعراء التيار الرومانسي أمثال:"علي محمود طه"، "ابراهيم ناجي"، الذين فرضوا إيقاعهم على الشعر العربي ومثال ذلك قصيدته "حنين إلى الضوء".[1]

ماذا يثير الناس لو مرنا على ضوء النهار
وحملت عنك حقيبة اليد... والمظلة
وأخذت ثغرك عند زاوية الجدار
وقطفت قبلة !

عيناك !

أحلم أن أرى عينيك يوما تنعسان
فأرى هدوء البحر عند شروق شمس

ابتعد الشاعر في هذه المرحلة عن الخطابة والصوت الصاخب المرتفع، وإن كان في شعره نوع من الثورة فإنها تبقى ثورة هادئة فقط.[2]

وهذه المرحلة أطلق عليها "محمود درويش" تسمية "الثوري الحالم"، وبالفعل فإن أغلب قصائده تأخذ منحى الهدوء وليس الكفاح المسلح ضد المحتل الصهيوني ولعل ذلك عائد إلى أن المقاومة الفلسطينية المنظمة لم تعلن في تلك الفترة ولم تشق طريقها إلى النور فكانت ثورة الشاعر على الأوضاع التي يعانيها العربي في الأرض المحتلة سواء كانت

---

[1] هاني الخير، المرجع السابق، ص23

[2] هاني الخير، نفس المرجع، ص22

هذه الأوضاع معنوية من (قمع، إرهاب، اعتقال) أو مادية من(فقر، بطالة، تهميش...).[1]

المرحلة الثالثة: وفي هذه المرحلة أخرج "درويش" دواوينه الثلاثة وهي: عاشق من فلسطين 1966م، آخر الليل 1967م، العصافير تموت في الجليل 1969م وتعتبر هذه المرحلة الأخيرة من شعر درويش داخل الأرض المحتلة.

وهو يصل في هذه المرحلة إلى القدرة على الإيحاء وهذه القدرة أو السمة الفنية تحل محل الخطابية والتعابير المباشرة الواضحة المغزى، فهو يلجأ إلى الرمز، والأسطورة والصور الذهنية المركبة بإيحاءاتها المختلفة التي يستمدها من التراث الإنساني، ومراعاة ألا يتحول شعره إلى شعر غامض يحوم في دائرة التعقيد والاستعصاء عن الفهم.[2]

وفي هذه المرحلة يتأثر محمود درويش تأثرا جليا بكوكبة من أعلام الشعراء العرب أمثال: "بدر شاكر السياب"، و"عبد الوهاب البياتي" و"صلاح عبد الصبور" و"خليل حاوي".

ولا يعني هذا التأثر أنه كان مقلدا لهؤلاء، بل كان ينهل من نفس الثقافات التي كانت سائدة آنذاك، زيقاسمهم همومهم العربية والإنسانية من أجل الخلاص الجماعي ومن أجل حياة إنسانية نبيلة المعاني والمرامي.

ومثال ذلك قصيدة "مديح الظل العالي" لمحمود درويش

أشلاؤنا أسماؤنا. لا مفر... لا مفر[3]
سقط القناع عن القناع عن القناع
سقط القناع
لا إنوة لك يا أخي، لا أصدقاء
يا صديقي، لا قلاع
لا الماء عندك، لا الدواء ولا سماء ولا الدماء ولا الشراع
ولا الأمام ولا الوراء
حاصر حصارك لا مفر
سقطت ذراعك فالتقطها

---

[1] محمود فكري الجزار، الخطاب الشعري عند محمود درويش، دراسة جامعية، ط1، 2000، مطبعة المقداد، غزة، ص64

[2] أفنان القاسم، مسألة الشعر والملحمة الدرويشية، مؤسسة عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص68

[3] محمود درويش، مديح الظل العالي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص68

واضرب عدوك... لا مفر
وسقطت قربك، فالتقطني
واضرب عدوك بي... فأنت الآن حر
حر...
وحر...[1]

ويلاحظ من خلال هذه القصيدة أن "محمود درويش" استطاع النهوض بشعره إلى مستويات رفيعة، حيث نشاهد تغيرا في الأسلوب وطريقة التعبير الفني في قصائده.

المرحلة الرابعة: وهي الأكثر غنى وتميزا عن المراحل التي سبقتها فبعد خروج الشاعر من الأرض المحتلة وبداية الرحلة خارج الوطن وبعد أن جرب الإغتراب والتنقل من عاصمة إلى أخرى أصبح الوطن بالنسبة إليه كالهاجس وأصبح كل ما يدور على جنبات الأرض المحتلة شغله الشاغل وهذا الأمر الذي شحنه ليكون إنتاجه الشعري زادا ضد الإحتلال الإسرائيلي ويكون شعره الذي يتوجه فيه إلى فلسطين النافذة الغائبة عن عيون المحتل الذي أغلق عليه نوافذه الأثيرة داخل الوطن.[2]

ففي بيروت عاصمة الحرية، وجد درويش ملاذه ومن أعلى أرصفتها وشواطئها وعلى مقاعد مقاهيها كتب "درويش" أعذب ما يكون من قصائد للعشاق والثوار ومن أجواء هذه المرحلة قصيدته "مزامير"[3] نقتطف منها هذه المقاطع للتعرف على الشكل الشعري التركيبي لدى "درويش"

أحبك أو لا أحبك
أذهب، أترك خلفي عناوين قابلة للضياع
وأنتظر العائدين، وهم يعرفون مواعيد موتي ويأتون
كأنكي لم تولدي بعد، لم نفترق بعد
وفوق سطوح الزوابع كل كلام جميل وكل لقاء وداع
أحبك أو لا أحبك...
يهرب مني جبيني، وأشعر أنك لا شيء
أو كل شيء
وأنك قابلة للضياع[4]

---

[1] محمود درويش، نفس المصدر، ص69

[2] حيدر توفيق بيضون، مرجع سبق ذكره، ص 37

[3] المرجع نفسه، ص38

[4] الرجع نفسه، ص39

وهنا تتقابل الإحتمالات وكل احتمال نقيض الآخر وعبر تناقض الأضداد يكون النمو، مثل أحبك ≠ لا أحبك، أنك لا شيء ≠ أو كل شيء، وما بيننا غير هذا اللقاء ≠ ما بيننا غير هذا الوداع، وفي هذه المرحلة نرى بأن "محمود درويش" تأثر بمنهج "تست إليوت" Test ilaut ، النقدي المعادل الموضوعي والذي يتجلى بحشد أكبر طاقة مشعة ومؤثرة من التعبير لتصبح معادلة الطاقة الانفعالية الأدبية.[1]

المرحلة الخامسة: هي المرحلة الغنائية الملحمية بدأت بديوان أعراس وامتدت حتى ديوان ورد أقل وتخللها ديوان حصار لمدائح البحر وفيها وصل الشاعر نقطة إنعطافه المهمة لا على المستوى الفلسطيني بل على المستوى العربي ومنه إلى المستوى العالمي ولا سيما في ديوانه أعراس وقصيدة الأرض وقصيدة الخبز فهي مرحلة هامة جدا بالنسبة إلى نضوج الشاعر وامتلاك مخزونه من التجارب والإطلاعات والثقافات، فقد أصبح الشعر عالم درويش الأول بغض النضر عن الهم السياسي أو إيديولوجية الخطاب الشعري التي أصبحت تقوم على جدل المباشرة على التماسك والإنسياب.[2]

وفي هذه المرحلة نلاحظ في شعر "درويش" اللجوء إلى القصائد الطويلة ذات البناء الشعري المسرحي وهو يعلن ذلك في قصيدته "مديح الظل العالي" حيث يقول:

كممرة تتفتح الزهرة
وكم مرة ستسافر "الثورة"

فأصبحنا نجد لدى "درويش" في قصائده الطويلة التمدد الكمي في البناء حيث التكرار والاستطراد المتكلف في بعض الصور فإن بداية المرحلة الخامسة كانت وقتها نقطة الانعطاف في مسيرة "درويش" الشعرية.

المرحلة السادسة: وهي مرحلة يمثلها ديوانه ورد أقل وهي الفترة التي فتر فيها حماس "محمود درويش" وتغيرت فيها علاقته بالشعر فبعد خروجه من الأرض المحتلة لم يسحب منديلة ويبكي ولم يقتل أعصابه ليكون إنسانا عاديا يعيش ضمن دائرة الروتين بل كان يعتقد أن الشعر بإمكانه أن يغير العالم والشعر على رأي النقاد فمه مليء بالمستقبل والشعراء فأصبح شعر "محمود درويش" ممعنا بالذاتية والبكاء وعاد درويش شاعرا غنائيا ولم يعد شاعر "التروبادور" كما كان في السبعينيات، وكانت اهتمامات درويش في هذه المرحلة الخزينة بقصيدة النثر على اعتبارها واقع يجب التعامل معه بابتهاج وافتنان والشاعر يتعايش بين كل أشكال التعبير الأدبي والشعري.[3]

---

[1] حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص40 بتصرف

[2] عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، ط5، 1994، ص35

[3] محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر المعاصر، سراس للنشر ، تونس، ط1، ص93

من خلال تبين أهم المراحل الشعرية التي مر بها درويش والتي تتقارب وتتداخل وقد تتعدد عند بعض الدارسين وقد تتقلص عند البعض الآخر ولكن الهدف الذي كان وراء تقسيمها إلى ست مراحل هو تبيان التمايز على موارد ومشارب الثقافات والإشارة إلى المؤثرات الأنتروبولوجية التي حكمت شعره ورؤياه الفنية حتى هيأت التجربة الشعرية لدى درويش وبالتالي ميزت هذه التجربة فأصبح الشاعر من خلالها مدرسة مهمة في مجال الشعر العربي الحديث.[1]

ويلاحظ أن الخيط الذي كان يجمع بين هذه المراحل هي اللغة الدرويشية الساحرة التي تبتعد عن الرصانة والمتانة بمعانيها التقليدية لترتفع إلى درجة الخطاب اليومي والتقاطع مع اللغة المادية، إلا أنها لغة حساسة موقعة وذات تأثير في النفوس المؤمنة بعفوية الكلمة وسلاستها وضرورة ملامستها للضمير، إنها أداة الشاعر في رسم الصورة التي أنفق معظم قصائده على أساس استكمال كل تفاصيلها أو بمعنى آخر إن هذه المراحل المتعددة التي مر بها شعر درويش توحي إلى حد بعيد بغنى التجربة واتساع مداها وذلك أمر لا يأتي إلا عن طريق الصدق، والتواصل بين الذات المرهفة المدركة والموضوعية.[2]

وأن الثقافة الأدبية الأولى لمحمود درويش مستمدة من الوسط الأدبي العربي الذي يعيش فيه الشاعر ويعيش فيه جميع المثقفين العرب في الأرض المحتلة.

الخصائص الفنية المشتركة في شعر محمود درويش:

* إن محمود درويش كان منفتحا على الحداثة الشعرية المميزة فحداثة درويش ليست حداثة الغموض ولكنها حداثة الوضوح الذي يتحرك في عمق الفن.

* الثراء اللغوي بجذوره واشتقاقه بالدرجة التي لا تشعر القارئ بالافتعال والمعاناة.

* الابتعاد قدر المستطاع من قبل النقاد والباحثين من معالجة شعر "درويش" من الناحية السياسية فقط وهذا ما صرح به الشاعر من الإفراط في التأويل السياسي لشعري على حساب الانتباه إلى المسألة الجمالية التي ينبغي للنقد أن ينشغل بها أكثر من خطاب القصيدة.

يقول "محمود درويش" في لقاء صحفي مع قناة LBC اللبنانية: "أنا أنزعج من شيء واحد، هو أن تعرف بطاقتي بالبعد السياسي فقط".[3]

---

[1] محمد لطفي اليوسفي، نفس المرجع السابق، بتصرف، ص94

[2] نفس المرجع، ص95

[3] خالد عبد الرؤوف الجبر، قراءات في شعر محمود درويش، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1430هـ،2009م، ص75

* لم يكن "محمود درويش" مناضرا لأدعياء الحداثة الذين يحاولون تدمير كل شيء (الدين، التراث، اللغة،...) وصرح بذلك لقد دمروا الشعر ووصفه دعاة قصيدة النثر الذين يملكون جرأة غير عادية في إلقاء شعرهم في قاعات فارغة خالية إلا من بعض أصدقائهم وزوجاتهم وبعض الأقارب، كان يخشى هؤلاء ويبتعد عن الصدام معهم، فهم يملكون مراكز قوى مدججة بالأسلحة أو مافيات.[1]

* الموسيقى الشعرية داخليا وخارجيا في نطاق التوازن بينهما فنيا ووجدانيا ويرجع ذلك إلى موهبته الفطرية وإلى استعابه للجرس في شعرنا العربي التقليدي.

* ثوريته الحالمة فهو رومانسي في قصائد تقل فيها المباشرة وتثرى بالعذوبة والأحلام وذلك بعدما تأثر بشعراء المهجر وشعراء مصر الرومانسيين ثم القدرة الفنية على الإيحاء بعدما تخلى عن التعبير الصريح متأثرا في نضجه هذا بشعراء محدثين كالسياب، البياتي وصلاح عبد الصبور وغيرهم.[2]

* صارت أشعاره في مرحلة النضج تستعين بالرمز والأسطورة والأقصوصة والأغنية الشعبية وصور الحياة الشعبية كل منها لجأ إليها "محمود درويش" باعتدال لا يوغل في الغموض لحرصه على الإلتصاق بإفهام الجماهير التي يكتب لها وحرصه أيضا على الإفلات من الرقابة السياسية الإسرائيلية وهذه المعادلة الصعبة التي عاناها الشاعر طويلا ونجح في تحقيقها فكيف حقق بدأنا نجد حوارا بين الطرفين في القصيدة يوضحه في الحوار الدائر بينهما ولقد أدى به هذا الحوار إلى ما يعرف بالتداعي الحر غير المفتعل فالفكرة تجلب ما بعدها وتهيئ لما يليها وهكذا حتى تتجسد الصورة الشعرية كاملة، ويخرج المتلقي من النطاق التأويلي والتفسير الخاطئ لبعض التركيبات الشعرية المرموزة وفي هذه الأبيات نموذج حي لهذا التطوير الشعري لديه.[3]

حجر كنعاني في البحر الميت
لا باب يفتحه أمام البحر
حجر يطير إلى أبي حجلا، أتعلم يا أبي
ما حل بي؟ لا باب يغلقه على البحر، لا مرآة أكسرها لينتثر الطريق حصى... أمامي أو زبد...
هل من أحد....
يبكي على أحد لأحمل نايه
عنه، وأظهر ما تبطن من حطامي؟

---

[1] رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص 100

[2] المرجع نفسه، ص 101

[3] المرجع نفسه، ص39

والبحر مات من الرتابة، في وصايا لا تموت
وأنا أنا، إن كنت أنت هناك أنت، أنا

يتضح لنا من خلال هذه الأبيات أن ليس للشاعر أي سلاح إلا الشعر فيتحدى به العدو ويدعوا الناس إلى الوحدة والثورة لا يفقد الشاعر أمله في المستقبل وينظر إلى يوم ميلاد أرضه في ربيه النصر يوما سوف تزدهر فيه شجرة ثابتة من دماء الشهداء.[1]

* ومن بعض الخصائص أيضا إلتحام الذات الفردية والجمعية بالتراب والأرض حيث أصبحت الذات في لحمة الأرض وسداها، حفنة من التراب لا يمكن فصل دراته من جلها، ولا أعشابه من عظامها، وأنت ترى مثل هذا في رثائه لراشد حسين حين جعله أسبوعا من الأرض ويوما للغزاة ومثال ذلك قوله مخاطبا المرحومة "فدوى طوقان" بعد قصيدتها البكائية عام 1967 في "يافا":[2]

نحن في حل من التذكار
فالكرمل فينا
وعلى أهدابنا عشب الجليل
لا تقولي ليتنا نركض كالنهر إليها
لا تقولي
نحن في لحم بلادي، هي فينا

وقد وضح "درويش" في القصيدة نفسها مفهومه للشعر مجسدا انعدام الذات الفردية واستغلال هذا الشعر عن الذات، وابتعاده عن آلامها وآمالها وتفاصيل حياتها وأوجاعها الصغيرة، حين قال مخاطبا فدوى:[3]

نحن يا أختاه من عشرين عاما
نحن لا نكتب أشعارا
ولكنا نقاتل

ومن خلال هذه الأبيات امتزجت الذات الفردية والجمعية وصار كل ما فيه ومن فيه حتى خارجه، خاضعا لسطوته ومصبوغا بصبغته، فاكتسب المكان قوة على قوة وازداد سلطة على سلطة، فتضخم حتى كاد يبدو مركز الكون ومحور الحياة الانسانية على وجه الأرض، وبهذا يمكن لنا فهم الإحساس الفلسطيني بالفخر والاعتزاز في السنوات

---

[1] حيدر توفيق بيضون، المرجع السابق، ص 40

[2] خالد عبد الرؤوف الجبر،قراءات في شعر محمود درويش، ص 124

[3] خالد عبد الرؤوف الجبر، نفس المرجع، ص125

التي عاشتها حركة النظال الوطني من أجل التحرير كما نفهم النظرات المعجبة به وبنضاله من جهة.[1]

[1] خالد عبد الرؤوف الجبر، المرجع السابق، بتصرف، ص 126

الفصل الثاني: تجليات صورة الأنا والآخر في شعر محمود

أولا

- صورة الأنا / الإسلام
- صورة الأنا / الوطن
- صورة الأنا / التحدي
- صورة الأنا / الصمود والمقاومة
- صورة الأنا / الأمل إلى المستقبل

ثانيا

- صورة الآخر / فقدان الهوية
- صورة الآخر / التشرد والإبعاد
- صورة الآخر / القتل والاغتيال
- صورة الآخر / اللجوء والمعاناة
- صورة الآخر / السجن

1- صورة الأنا / الإسلام:

تبدو الأنا في وجهها الإسلامي من أكثر الصور وضوحا وأوسع مجالا في شعر محمود درويش بل "إن الفكرة الأساسية التي تدور حولها تجارب الشاعر هي العقيدة الإسلامية بكل أبعادها الممتدة عبر الزمان والمكان، وبكل فتوحاتها في نفس الإنسان وعقله وطموحاته"، لذلك سوف نحاول أن نعرض هذه الصور من مختلف زواياها ونبدؤها بـ:

أ- البحث عن الأنا:

تقوم هذه الصورة أساسا على سمة خاصة وهي سعي الأنا المسلمة نحو معرفة ذاتها واكتشاف عالمها المتفرد الذي يختص بها دون الآخر، هذا الأخير الذي يستوجب عليها إقصاؤه، بل ومحاربة كل ما قد يشغله للحيلولة دون بلوغ مبتغاها الذي لن يكون بالأمر الهين، ذلك أن المعاناة سوف ترسم طريقها، وسوف نلاحظ ذلك في مطلع المقطع الشعري الموالي الذي تفتتحه بصيغة سؤال يعبر عن حالة من القلق تعيشها الأنا، وهو قلق الإنشطار والإنقطاع الذي حدث بين الأنا والعقيدة الإسلامية نتيجة ارتكازها إلى العالم المادي حيث لا يوجد "هناك سوى عجلة الزمن... ولكن مع معاد من العقائد مكرور... ومع تطلعات إلى الأسفل، حيث الطين الأسن بعيدا عن سماوات الروح وعوالمها".[1]

يقول "محمود درويش":

أَنَا آدَمُ الثَّانِي، تَعَلَّمْتُ القِرَاءَةَ
وَالكِتَابَةَ مِنْ دُرُوسِ خَطِيئَتِي
وَغَدِي سَيَبْدَأُ مِنْ هُنا وِالآنْ
إِنْ شِئْتُ أَنْ أَنْسَى... تِذَكَّرْتُ
انْتَقَيْتُ بِدَايَةً، وِوُلِدْتُ كِيْفَ أِرِدْتُ

[1] مجلة الكرمل الصادرة في قبرص، العدد 21/22، ص 17

لاَ بَطَلاً... وَلاَ قُرْبَانْ[1]

فهذا الصراع الذي ولد المعاناة لدى الأنا هو شعورها بإنيتها، أما إدراكها لذاتها في فرديتها الجوهرية فإنه لا يتم إلا في غمرة الإحساس بعاطفة الألم، لذلك فإن معرفة هذه الأنا لا تتم إلا بالعودة إلى الباطن والتوغل في الأعماق.

وهو ما حاولت فعلا تحقيقه في داخلها، حيث بدأت بالسفر بحثا عن هذه الذات وعن العقيدة الإسلامية التي ميزها فعل الغياب.

وقد نجد أن الأنا قد دخلت مرحلة الإغتراب والحيرة والضياع، فلم يعد يبدو منها إلا شقاؤها، وهنا تتجلى صورة الأنا التشاؤمية المتوجعة وكل هذا جسده ملامح الآخر، الذي كان السبب في وصولها إلى هذه الحالة المأسوية، هذا الأخير الذي سوف يحارب الشريعة الإسلامية مستعملا شتى أنواع القمع من أجل القضاء على هذا الإسلام.

2- صورة الأنا / الوطن:

الإنسان شديد الصلة بالمكان الذي ولد فيه، ونشأ على ترابه، وهو البيئة التي لها الأثر الكبير في حياته وتكوينه الفكري والنفسي فالإنسان يرتبط بوطنه إرتباطا وثيقا، فتأثير الوطن في الإنسان أمر محتوم.

فإن هذه الصلة بين الناس والوطن أوثق في نفوس الشعراء إذ يعاملونه إنسانا ذا روح وهوية، فدائرة الحب بينهم وبين وطنهم واسعة، خاصة عند شعراء المقاومة الفلسطينية الذين يعيشون في وطن مكبول يساوي عنده حب الوطن بحب الحبيبة والألم في قلوب بعض الشعراء كمحمود درويش فإن تكلم معه، كأنه يكلم معشوقته، إو كأنه إبن مناضل يكلم أمه، ونشاهد مزجا عميقا بين صورة المرأة وصورة الوطن والعشق المتوهج إلى حد الفناء به هو في قصائده المجنون عشقا في تراب الوطن

[1] خالد عبد الرؤوف الجبر، قراءات في شعر محمود درويش، دار جرير للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص 54

حبيبته هي الأرض، وهو يتغزل بها، لأنه يعتقد بأن القلب بلا حب هو قطعة لحم، تصلح أن تكون طعاما للكلاب.[1]

يقوم محمود درويش:

نَسِيمُكِ عَنْبَرْ[2]
أَرْضُكِ سُكَّرْ
وَقَلْبُكِ أَخْضَرْ !

وَإِنِّي طِفْلٌ هَوَاكِ
عَلَى حُضنِكِ الحُلو
أَنْمُو وأكبر

محمود درويش في هذه الأبيات هو شاعر الوطن، فيدافع عن وطنه بمختلف الأشكال والأزياء.

يقول درويش: "أنا لا أكون إلا في الأرض، وكل وجود خارجها إنما هو ضياع وتيه نهائي".[3]

لهذا نشاهد أشعار درويش عند قراءة ديوانه مليئة بوصف أرض الوطن وسمائه ومناخه، ونسائم لياليه البحرية وذرات التراب وزيتونه ورائحة البرتقال والياسمين.

ويقول أيضا:

وَطَنِي حَقِيبَةٌ [4]
مِنْ جِلْدِ أَحْبَابِي
وَأَنْدَلُسِ القَرِيبَةِ
وَطَنِي عَلَى كَتِفِي
بَقَايَا الأَرْضِ فِي جَسَدِ العُرُوبَةِ

---

[1] شاكر النابلسي، مجنون التراب دراسة في شعر وفكر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان، ط1، 1987، ص 288

[2] المرجع نفسه، ص 289

[3] المرجع نفسه، بتصرف، ص 290

[4] محمد فكري الجزار، الخطاب الشعري عند محمود درويش، إتراك للطباعة والنشر، مصر، 2002، ص 299

نلاحظ من خلال هذه الأبيات بأن التشبيب بالأرض عند درويش شديد وهكذا كانت أناته في انتمائه إلى وطنه إذ يضع الوطن في حقيبته في بعض قصائده عندما يضطر بترك الوطن، ويحمله إلى أي مكان إنه يحب الوطن، حب الفقير الرغيف، ويعطي عيونه وفوائده له ويعشقه رغم أن حرير صدره فرش وثير للعدو.[1]

يقول في هذا الصدد:

سَأُحِبُّ شَهْدَكَ

رغم أن الشهد يسكب في كؤوس الآخرين

يغني درويش لوطنه حتى على المشانق ويعزف حبه بالوطن في صدر يتأوه بصوت يحصل من ذوبان قلبه تحت طاحونة الألم، إنه يحمل الوطن في دفاتر شعره، ويريد أن يذكر بلده بأناشيده، إنه خلف الصور والباب في المنفى ويستمر في الحياة بعشق وطنه فقط.[2]

3- صورة الأنا / التحدي:

يعتبر محمود درويش الشعر سلاحا في الصراع بينه وبين اليهود إذ يقول: "نحن في الحاجة إلى درس الوطن الأول، أن نقاوم بما نملك من عناد وسخرية، بما نملك من جنون".[3]

يظهر هذا العناد في كثير من أبياته، يستهدف إلى اضطرام نيران المقاومة والدفاع، في قلوب الشعب الفلسطيني، وفي قالب الكلمات التحذرية إلى حد نستطيع أن ندعي أن وهر أدبه، الرفض، وأن مثل هذه القصائد تمثل المقاومة في أوضح صورها، عندما تكون فوهة البندقية مصوبة إلى صدر الشاعر الأعزل لكلماته الجرأة والرجولة الذهنية والعقائدية.[4]

---

[1] المرجع السابق، ص 300

[2] المرجع نفسه، ص301

[3] رمضان الصباغ، في نقد الشعر العربي المعاصر دراسة جمالية، دار الوفاء للنشر، مصر، ط1، 2001، ص 211

[4] المرجع نفسه، ص 212

يقول محمود "إننا نخوض المعركة إن لم نتسلح تفاؤلا تاريخيا وبجواز في معركة التحدي، فكيف نمضي؟ إننا نعيش في المعركة لحظة تلو لحظة، وتكاد ألا نمضي دقيقة من عمرنا إلا ونحس أننا أمام التحديات الكبرى المستمرة، إننا عندما نكتب نتحدى، وعندما نكون موجودين على أرضنا نتحدى، وعندما نأكل من زادنا نتحدى، لأننا نقاوم ترجمة الوطن كله إلى العربية لغة، وإلى الصهيونية أرضا وتقاليد وزادا".[1]

وهكذا تجسدت أنات الشاعر في صحو الشعب وتحريضهم إلى القيام فيقول:

كُلُّ الرِّوَايَةِ فِي دُمَى مَفَاصِلُهَا[2]
تَفَضَّلَ الحِقْدُ كِبْرِيتًا عَلَى شَفَتِي
أَطْمَعَتْ لِلرِّيحِ أَبْيَاتِي وَزَخِرفِهَا
إنْ لَمْ تَكُنْ كَسُيُوفِ النَّارِ قَافِيَتِي !

آمَنْتُ بِالحَرْفِ... إِمَّا مَيِّتًا عَدَمًا
أَوْ نَاصِبًا لِعَدْوَى حَبْلِ مِشْنَقَةٍ
آمِنْتُ بِالحَرْفِ... لاَ لاَ يَصِيرُ إِذَا
كُنْتُ الرَّمَادُ أَنَا... أَوْ كَانَ طَاغِيَتِي !

فَإِنْ سَقَطَتْ... وَكَفَى رَافِعْ عَلَمِي
سَيَكْتُبُ النَّاسُ فَوْقَ القَبْرِ: لَمْ يَمُتْ

يؤمن درويش ببقاء صوته خالدا، حتى بعد الموت وإنه يحرق حياة الصهيونية كالنار إنه يوصي رفاقه الشعراء بترك قصائدهم الماضية التي كانت تدور حول وصف النجم فوق غيمة والقمر والخمر وتودد النساء، لأنه قد تغير كل شيء بعد هجمة اليهود.[3]

---

[1] رمضان الصباغ، المرجع السابق، ص 313

[2] عمر الربيحات، الأثر الثوراتي في شعر محمود درويش، دار اليازوردي العلمية للنشر، الأردن، ط1، 2006، ص 106

[3] المرجع نفسه، ص 107

4- صورة الأنا / الصمود والمقاومة:

تعلم شاعر المقاومة من جرح احتلال وطنه أن يقاوم ويمشي على جرحه وتعلم ألا يقبل السلام من جانب اليهود لأنه لا يستطيع أن يجمع بين اقتراح السلام من جانب الظلم والجور من جانب آخر فالشوق والحنين الذي تعج به قصائد "محمود درويش" التي تمثل الوجدان الفلسطيني، غرست في شعبنا الفلسطيني وفي شاعرنا روح التحدي والصمود والمقاومة أمام العنف والبطش الصهيوني الوحشي يقول "محمود درويش" في المقطع الخامس من قصيدته التي بعنوان "بطاقة هوية":

سَّجِلْ[1]
أَنَا عَرَبِي
سُلِبَتْ كُرُومَ أَجْدَادِي
وَأَرْضُنَا كُنْتُ أُفَلِدُهَا
أَنَا وَجَمِيعُ أَوْلاَدِي
وَلَمْ تَتْرُكْ لَنَا... وَلِكُلِّ أَحْفَادِي
سِوَى هَذِهِ الصُّخُورِ....
إِذَنْ سَجِّلْ بِرَأْسِ الصَّفْحَةِ الأُولَى
أَنَا لاَ أَكْرَهُ النَّاسْ
وَلَا أَسْطُو عَلَى أَحَدٍ
وَلَكِنِّي...... إِذَا مَا جُعْتُ
آكُلُ لَحْمَ مُغْتَصِبْيِي
حَذَارِ........ حَذَارِ......... مِنْ جُوعِي
وَمِنْ غَضَبِي !!

[1] محمود درويش، بطاقة هوية، الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، 2002، ص 65

في هذه الأبيات تتفجر أنات "درويش" فهو يخاطب الأعداء، ويحذرهم بأن الدماء التي يشربونها من جثث الشعب الفلسطيني، تخنقهم في المستقبل القريب، كأنه يسمع صوتا من السماء يصرخ ويخاطب الأعداء الذين أغاروا، وهدموا بيوت الشعب الفلسطيني، وشيدوا بلادهم على أشلاء الشعب وأنقاض بيوتهم.[1]

ويقول في موضوع آخر:

يَا وَيْلَ مَنْ تَنَفَّسَتْ رِئَاتَهُ الهَوَاءَ
مِنْ رِئَةٍ مَسْرُوقَةٍ
يَا وَيْل مِنْ شرابه دِماء
وَمَنْ بَنَى... حَدِيقة... تُرابُها أشلاء
يا ويل من وردها المَسْمُوم [2]!

وهكذا انفجرت أنات الشاعر بالدعوة إلى الصمود والمقاومة.

وفي قصيدة "أمل" ينظم قائلا:

مَازَالَ فِي صحونِكُمْ بَقِيّة مِنَ العَسَلِ
رَدُوا الذُّبَابَ عَنْ صُحُونِكُمْ
لِتَحْفَظُوا العَسَلَ
مَازَالَ فِي كُرُومِكُمْ عَنَاقِيْدَ مِنَ العِنَبِ
رَدُّوا بَنَاتَ آوَى
يَا حَارِسَ الكُرُومِ
لِيَنْضُجَ العِنَبَ....
مَا زَالَ فِي بُيُوتِكُمْ حَصِيرَة... وَبَابْ
سَدُوا طَرِيْقَ الرِّيْح عَنْ صِغَارِكُمْ
لِيرْقُدِ الأَطْفَالُ
الرِّيْحُ... بَرْدٌ قَارِسٌ... فَلْتَغْلِقُوا الأَبْوَابَ...[1]

---

[1] ال
مصدر نفسه، ص 66
3نفسه، ص 67

في هذه القصيدة يدعو درويش الناس إلى المقاومة والقيام لحفظ كل ما يمتلكون، من تعدي العدو، حتى آخر قطرة من دمائهم، ويحرض الشاعر الناس لرد العدو ويحرض الناس أن يغلقوا أبواب بيوتهم، ويحفظوا أطفالهم أمام العدو. يدعو درويش الشعب إلى توحيد الصفوف والاتحاد أمام العدو في بعض قصائده، ويريد من الشعب أن يضعوا الكف على الكف ويمشوا إلى صفوف الأعداء وخبرهم بأن هذه العقدة لا تحل إلا بيد الفلسطينيين أنفسهم.[2]

5- صورة الأنا / الأمل إلى المستقبل

يعتبر شاعر المقاومة والألم والبؤس والحرمان جسرا يستطيع أن يوصله إلى الحرية.

[1] محمود درويش، قصيدة أمل، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 85
[2] المصدر نفسه، ص 86 بتصرف

إنه يحتمل المرارة بأجمعها أملا إلى مستقبل يزدهر فيه شجرة النصر التي يسقونها الأطفال بدماء أريقت فوق ثرى فلسطين، ويطمئن بأن يوم النصر آت عن قريب.

درويش من الذين يؤمنون... فهو أفضل من اليوم فالشاعر يبشر على سبيل المثال بيوم ينهدم فيه غرفة التوقيف والسلاسل، وهذا المستقبل يتحقق بمجاهدة الأطفال المناضلين الذين يكبرون ويقلعون الصخر وأنياب الظلام، يقول محمود درويش:

مَنْ يَرْقُصْ اللَّيْلَة فِي المَهْرَجَانِ[1]
أَطْفَالُنَا الآتُونْ
مَنْ يَظْفَرْ الأَحْزَانْ
إِكْلِيلُ وَرْدٍ فِي جَبِينِ الزَّمَانِ؟
أَطْفَالُنَا الآتُونْ
مَنْ يَضَعُ السُّكَرَ فِي الأَلْوَانِ
أَطْفَالُنَا الآتُونْ
مَن يَظْفَرْ الأَحْزَانُ
إِكْلِيلُ وَرْدٍ فِي جَبِينِ الزَّمَانِ؟
أَطْفَالُنَا الآتُونْ
مَنْ يَضَعُ السُّكَرَ فِي الأَلْوَانِ
أَطْفَالُنَا الآتُونْ
وَنَحْنُ يَا مَعْبُودَتِي
نَأْخُذُهُ فِي غُرْفَةِ المِهْرَجَان
نَمُوتُ مَسْرُورِينَ
فِي ضَوْءِ مُوسِيقَى
أَطْفَالُنَا الآتُونْ[2]

[1] محمود درويش، ديوان محمود درويش، المجلد الأول، ط12، دار العودة، بيروت، ص 103
[2] محمود درويش، ديوان محمود درويش، المصدر السابق، ص 104

شبه درويش جثث الشهداء بحبوب سنبلة تحت الثرى التي تسقى دائما بدماء الشهداء، إذن يعتقد بأن هذه الدماء سوف تثمر، وسوف تنمي الحبوب، وتملأ فلسطين بالسنابل:

شَمْسُنَا أَقْوَى مِنَ اللَّيْلِ
وَكُلُّ الشُّهَدَاءِ
يَنْبَتُونَ اليَوْمَ تُفَّاحًا وَأَعْلاَمًا وَمَاءً
وَيَجِيئُونَ.... يَجِيئُونَ[1]

تتجسد أنات الشاعر بأن يوم ميلاد أرضه في ربيع النصر الذي سوف تزدهر شجرة منبتة في دماء الشهداء، ويحتمل الإحتلال بكل مصائبه لتحقيق هذا الأمل، ويضع من المشانق ومن صلبان الماضي والمستقبل سلاسل للغد الموعود.[2]

1- صورة الآخر / فقدان الهوية:

وبعد رحلة مضنية قضاها شاعرنا في لبنان، عاد برفقة عمه إلى قرية غير قريته بفلسطين وهي "دير الأسد" التي مكث فيها لاجئا، لا حق له في الإقامة في وطنه ولا جواز سفر لديه، وقد عبر عن ذلك بقصيدته التي قدمته للشعر العربي باعتبارها بطاقة هوية أو جواز السفر المفقود، والتي جرت على كل لسان، يقول محمود درويش:[3]

سَجِّلْ !

أَنَا عَرَبِي
وَرَقْمُ بِطَاقَتِي خَمْسُونَ أَلْفْ
وَأَطْفَالِي ثَمَانِيَةٌ
وَتَاسِعُهُمْ... سَيَأْتِي بَعْدَ صَيْفْ !

---

1 المصدر نفسه، ص 105
2 نفسه، ص 106
3 محمود درويش، بطاقة هوية (سجل أنا عربي)، الأعمال الكاملة، ص 68

فَهَلْ تَغْضَبْ

....

سَجِّلْ !

أَنا عَرَبِي
وَأَعْمَلُ مَعَ رِفَاقِ الكَدْحَ فِي مَحْجَرْ
وَأَطْفَالِي ثَمَانِيَةٌ[1]
أَسُلُّ لَهُمْ رَغِيْفَ الخُبْزِ
وَالأَثْوَابَ والدَّفْتَرْ
مِنَ الصَّخْرِ....
وَلَا أَتَوَسَّلُ الصَّدَقَاتْ مِنْ بَابِكْ
وَلاَ أَصْغُرُ
أَمَامَ بِلاَطِ أَعْتَابِكْ
فَهَلْ تَغْضَبْ[2]

وهكذا حرم الآخر شاعرنا من فقدان هويته، والتي أكثر ما يقلقها النمو السكاني السريع للعرب في فلسطين المحتلة، كذلك صيغة الخطاب بلهجة الأمر (سجل)، والاستفهام الاستفزازي (فهل تغضب)؟ والأمر والاستفهام يقترنان بالتحدي الخفي، وهو ما نسميه حرب الهوية، لاسيما أنه يمس العصب الوطني القومي، وقد جعله محمود درويش لازمة ختامية يتم تكرارها، أربع مرات في مقاطع القصيدة الخمسة، مما يساهم في تجذير الحضور الإنساني والتاريخي المقتلع من خلال التأكيد على تمسكه بجذوره العميقة في التاريخ، وتأكيد أصالة الإنتماء غلى عناصر الطبيعة وغرس أوتاره في الأرض باعتباره فلاحا من أسرة المحراث التي زادتها الشمس شموخا وصلابة.[3]

يقول محمود درويش:

---

[1] المصدر السابق، ص 69
[2] المصدر نفسه، ص 175
[3] نفسه بتصرف، ص 176

سَجِّلْ !

أَنَا عَرَبِي
أَنَا اِسْمٌ بِلاَ لَقَبِ
صَبُورٌ فِي بِلاَدٍ كُلُّ مَا فِيهَا
يَعِيشُ بِفَوْرَةِ الغَضَبِ
جُذُورِي......
قَبْلَ مِيْلاَدِ الزَّمَانِ رَسَتْ
وَقَبْلَ تَفَتُّحِ الحِقَبِ
وَقَبْلَ السَّرْوِ والزَّيْتُونِ
وَقَبْلَ تَرَعْرُعِ العُشْبِ
أَبِي مِنْ أُسْرَةِ المِحْرَاثِ
لاَ مِنْ سَادَةٍ نُجُبِ
وَجَدِّي كَانَ فَلاَّحاً
بِلَا حَسَبٍ وَلاَ نَسَبٍ !
يُعَلِّمُنِي شُمُوخِ النَّفْسِ قَبْلَ قِرَاءَةِ الكُتُبِ
وَبَيْتِي كُوخٍ نَاطُورٍ
مِنَ الأَعْوَادِ وَالقَصَبِ
فَهَلْ تُرْضيكِ مَنْزِلَتِي؟
أَنَا اِسْمٌ بِلاَ لَقَبٍ[1]

وقد عبر عن ذلك الحرمان من الجنسية في وطنه بقصيدته الرائعة "جواز سفر" التي ربط فيها بينه وبين طبيعة بلاده بما فيها من عصافير وشجر ومطر وقمر وسنابل ومطارات ودموع ومناديل، مشهد يجسد عمق المأساة، يقول فيها:

لَمْ يَعْرِفُونِي فِي الظِّلَالِ التِّي
تَمْتَصُّ لَوْنِي فِي جَوَازِ السَّفَرِ

[1] محمود درويش، ديوانه الأعمال الكاملة، المجلد 1، ص 186، 187

وَكَانَ جَرْحِي عِنْدَهُمْ مُعْرِضًا
لِسَائِح يَعْشَقُ جَمِيعَ الصُّوَرِ
لَمْ يَعْرِفُوني، آهٍ...... لاَ تَتْرُكِي
كَفِي بِلَا شَمْسٍ،
لِأَنَّ الشَّجَرَ
يَعْرِفُنِي
تَعْرِفُنِي كُلُّ أَغَانِي المَطَرِ
لاَ تَتْرُكْنِي شَاحِبًا كَالقَمَرِ !
كُلُّ العَصَافِيرُ التِّي لاَحَقَتْ
كَفَى عَلَى بَابِ المَطَارِ البَعِيدِ
كُلُّ حُقوُلِ القَمْحِ،
كُلَّ السُّجُونِ
كُلَّ القُبُورِ البِيضِ[1]
كُلُّ الحُدُودِ....
كُلَّ المَنَادِيلُ التِّي لُوِحَتْ
كُلُّ العُيُونِ
كَانَتْ مَعِي، لَكِنَّهُمْ
قَدْ أَسْقَطُوهَا مِنْ جَوَازِ السّفَرِ

وبهذا يكون محمود درويش قد لمس الواقع الحسي بكلمات يسهل تأطيرها خارجيا واستطاع توظيف اللغة الشعرية بكفاءة وفعالية على نحو هذا الشكل الجمالي مستخدما الأرقام بإشارتها الواقعية التي تمس جوهر الصراع الوطني والقومي على حد سواء وقد نجح شاعرنا في نقل مركز الصراع من الذات إلى العالم من الهوية إلى الأرض، التي تمثل البطاقة الجامعة للشخصية الفلسطينية.[2]

[1] محمود درويش، جواز سفر، الأعمال الكاملة، ط3، 2008، ص 200
[2] محمود درويش، الأعمال الكاملة، ص 201

2- صورة الآخر / التشرد والإبعاد:

أبعد مئات آلاف من أبناء الفلسطينيين عن أرضهم وجذورهم وحضارتهم خاصة بعد نكبة 1948م، وعاشوا في الغربة بكل مرارة باحثين عن مأوى لاجئين في الخيام، أو مشردين على هامش مجتمعات غربية.

بدأ أبناء فلسطين سفرا لا ينتهي تحت رياح الضياع والغربة، حاملين عذابات الإرتحال الدائم، السفر الذي جعل المشردين كأزهار ذابلة، وذاق درويش مرارة الغربة والبعد كمواطنية الآخرين، إذ جرب الإغتراب داخل الوطن والنفي خارجه.

وأثر هذا الإغتراب والتنقل من عاصمة إلى أخرى، في نفس درويش، وجعل أشعاره حنينا مؤثرا في النفوس، لأن الأغاني تخرج من القلوب الجريحة التي حرقتها الغربة، ويصف في قصائده حياته في المنفى، ليس له رفيق غير شعره، وهو في المنفى بعيد عن حنان وطنه وربيع عينيه، ولكنه لا يكتفي بالتعبير عن نفسه فحسب بل يصور العذاب الملحق بأبناء شعبه في المنفى من الإغتراب والإحساس بضياع الهوية، ووحشة البيت الخالي من الضحك والسرور يقول درويش:[1]

وَحِينَ أَعُودُ لِلْبَيْتِ
وَحِيْدًا فَارِغًا إِلَّا مِنَ الوِحْدَةِ
يَدَايَ بِغَيْرِ أَمْتِعَةٍ، وَقَلْبِي نَمَا وَرْدَةً
فَقَدْ وُزِعَتْ وَرْدَاتِي
عَلَى البُؤَسَاءِ مُنْذُ الصُّبْحِ... وَرْدَاتِي
وَصَارَعْتُ الذِّئَابَ، وَعُدْتُ لِلْبَيْتِ
بِلَا رَنَّاتٍ ضِحْكَةً حُلْوَةً
وَحِيدًا أَصْنَعُ القَهْوَةَ
وَحِيدًا أَشْرَبُ القَهْوَةَ
فَأَخْسَرُ مِنْ حَيَاتِي... مِنْ كِفَاحِي

---

[1] مجلة الكرمل، العدد 21/22، الصادرة عام 1986، بيروت، ص 41، 42

أَخْسَرُ النَّشْوَةِ
رِفَاقِي هَاهُنَا
المِصْبَاحُ وَالأَشْعَارُ، وَالوِحْدَةِ
وَبَعْضُ سَجَائِرٍ... وَجَرَائِدِ كَالَّلْيل مُسْوَدَةٍ
وَحِينَ أَعُودُ لِلْبَيْتِ
أُحِسُّ بِوَحْشَةِ البَيْتِ
وَأَخْسَرُ مِنْ حَيَاتِي كُلَّ وَرْدَاتِي
وَسِرُّ النَّبْعِ ... نَبْعَ الضَّوْءِ فِي أَعْمَاقِ مَأْسَاتِي
وَاخْتَزِنُ العَذَابَ لأَننَي وَحْدِي[1]

في قصيدة "رسالة من المنفى" يصور درويش معاناته اليومية في المنفى فما عنده شيء إلا رغيفا يابسا، ودفتر أشعاره، إنه كطائر جريح أفقده الآخر ريشه، وهو لا يستطيع الطيران، ينظر أن ينبت الريش على جناحه لكي يحلق في أجواء الوطن، يكتب رسالة إلى أهله ليخبرهم عن صحته وهو يعلم بأن ليس أي بريد لحمل رسالته، ولهذا يبلغ نداءه بالعصافير الحرة، وفي رأيه أن الغريب يموت مرتين:

الموت الأول، وهو غربته في المنفى لأن الوطن كل حياة الإنسان وعندما يسلب منه، فلا قيمة له بلا وطن.[2]

ويقول أيضا:

يَا أَطْفَالَ بَابِلْ
يَا مَوَالِيدَ السَّلاَسِلْ
سَتَعُدُونَ إِلَى القُدْسِ قَرِيبًا
وَقَرِيبًا تَكْبَرُونَ
وَقرِيبًا تَحْصَدُونَ القَمْحَ فِي ذَاكِرَةِ المَاضِي

---

[1] مجلة فصول، المجلد السابع، العددين الأول والثاني، أكتوبر سنة 1986، ص 160

[2] مجلة الموقف الأدبي، منشورات الكتاب العرب، سوريا، 1997، عنوان الموقع:
http :llwww .awu.dam.org

قَرِيبًا يُصْبِحُ الدَّمْعَ سَنَابِلْ
آهٍ يَا أَطْفَالَ بَابِلْ
سَتَعُدُونَ إِلَى القُدْسِ قَرِيباً
وَقَرِيبًا تَكْبَرُونَ[1]

تمتزج قصائد درويش التي تتمحور عن غربة المنفى بالحزن والحسرة ولكن لا يختم عليها اليأس، بل في كثير من قصائده يجد الأمل بالعودة إلى الوطن لأن مرارة التشرد وقسوة السوط إذا انتصرا على أجساد المتشردين فلن تنتصرا على جوهرهم، والكرامة هي المبرر الوحيد لإحتمال عذاب الإنسان.[2]

3- صورة الآخر / القتل والإغتيال:

نشاهد بين سطور اوراق ديوان أدب المقاومة عند تصفحه شرح جرائم المعتدين وسفك دماء المظلومين، وفقدان الأمن النفسي واستشهاد النساء والأطفال في الشوارع والبيوت، تعد المجزرة في كفر قاسم من الحوادث التي كان لها صدى عظيم بين الشعراء الفلسطينيين، خاصة محمود درويش، له أناشيد كاملة عن كفر قاسم في ديوانه الأخير "آخر الليل"، فإنه يخلد ذكرى هذه المصيبة في قلوب أبناء فلسطين إلى الأبد، ويتعلم من هذه المذبحة، ومن ضربة الجلاد والحقد الذي يزرع ألا يساوم، بل يمشي ويقاوم، إنه يعتقد بأن الشعب الفلسطيني تعلم كيف يمارس حريته الوحيدة، حرية اختيار الموت في سبيل الحياة والمناضلون وحدهم قادرون دائما على تغيير المفاهيم، هكذا يصبح مفهوم الموت، مفهوم الحياة.[3]

يقول محمود درويش:
أَعِيْنِيْنِي عَلَىَ الحِقْدِ الذّي يَزْرَعُ فِي قَلْبِي عَوْسَجٍ
إِنَّنِي مَنْدُوبَ جُرْحٍ لاَ يُسَاوَمُ

[1] محمود درويش، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 83
[2] محمود درويش، ديوانه الأعمال الكاملة، ص 85
[3] فؤاد السلطان، القدس في الشعر العربي المعاصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص 19

عَلَّمَتْنِي ضَرْبَةَ الجَلاَّدِ أَنْ أَمْشِي عَلَى جُرْحِي
وَأَمْشِي، ثُمَّ أَمْشِي، وَأُقَاوِمْ[1]

يتغنى محمود درويش بآلام وطنه الذي أصبح كحبل غسيل المنادل بالدم المسفوك في كل دقيقة الذي خلفه اليهود تجاه الأنا المجروحة إنه دم أسراب العصافير التي تسقط كالورق الزائد بآبار الزمن، وهو يعرض تصويرا مؤلما من قتل أم بين يدي بنتها الصغيرة:

الطِّفْلَةُ احْتَرَقَتْ أُمُّهَا

أَمَامَهُ !

احْتَرَقَتْ كَالمَسَاءِ
وَعلَّمُوهَا: يَصِيرُ اسْمُهَا
في السَّنَةِ القَادمَة سيِّدَةُ الشُّهَدَاءُ
وَسَوْفَ تَأْتِي إِلَيْهَا
إِذَا وَافَقَ الأَنْبِيَاءُ[2]

4- صورة الآخر / اللجوء والمعاناة:

لعل اللجوء والنزوح من أكثر ما أرق محمود درويش في حياته فقد عاش صغيرا وكبيرا وها هو يقدم لنفسه صورة ذاتية كنموذج شخصي وقومي فهو طيب القلب وخجول من شعبه اللاجئ المشرد في العراء، يقول في قصيدته بعنوان "كتابة على ضوء بندقية":

كان محمود صَادقًا طيِّب القلبِ[3]
خجولاً كانَ، لاَ يَطلُبْ مِنْهَا
غَيْرَ أَنْ تَفْهَمَ أنَّ اللاَّجِئِينَ
أُمَّةٌ تَشعُرُ بالبردِ

---

[1] نفس المرجع، ص 20
[2] مجلة الكرمل الجديد الفلسطينية، أغسطس سنة 2012، ص 70
[3] محمود درويش، الكتابة على ضوء بندقية، الأعمال الأولى، دار العودة، بيروت، ص 116

وبِالشَّوْقِ إِلَى أَرْضٍ سليبةٍ
وحبيبًا صارَ فيهَا بَعْدَ
لَكِنَّ الشَّبَابِيكُ التِّي يَفْتَحُهَا
في آخرِ اللَّيلِ..... رهيبةٍ

فقد نجح الشاعر في توصيل رسالته الإنسانية إلى كل قلب يخفق بشعور إنساني نبيل، لما تعرض له اللاجئ الفلسطيني من نزوح ومعاناة بعد أن سلب العدو أرضه وألقى به في العراء.[1]

وفي قصيدة بعنوان "الخروج من ساحل البحر الأبيض المتوسط" يربط محمود درويش فيها ما يتعرض له الشعب الفلسطيني من تهجير ومضايقة، وبين خروج بني اسرائيل القديم، مشيرا إلى احتواء الفلسطينيين في الدول التي هاجروا إليها، وخروجهم بعد حرب أيلول سنة 1970م من الأردن إلى سورية ولبنان، يقول:

وتقاَسَمتْنِي هذهِ الأُممُ القريبَةِ والبعيدةِ
كُلَّ قَاضٍ كاَنَ جَزَّارًا
تَدَرج فِي النُّبُوءَةِ والخطيئةِ
واختلفنَا حينَ صارَ الكُلُّ فِي جزءٍ؟
وصار الجرحُ وردتُناَ جميعًا
وابتعدنَا
اذهبْ إلى الموتِ الجميلِ
ذَهبتُ
وَحدِي كنتُ
قلتمْ: نَحنُ ننتظِرُ الجنَازة بِالأكَالِيل الكبِيرة والطُبُول
ونَلتَقِي فِي القدسِ
بِدمُوعِ هاجرْ كانَت الصَّحراء جالسةً على جِلدِي
وأوَّل دَمْعَة في الأرضِ كانَتْ دَمْعَةً عربيةً[1]

---

[1] المصدر نفسه، ص 117

ونعاسٌ جاءَ مِنْ صمتِ الضَّحايَا

أيْنَ أهْلي؟

خَرَجُوا مِن خيمةِ المَنفَى، وعادُوا

مرَّة أخرَى سَبَايَا[2]

ويوظف شاعرنا الليل والمساء باعتبارهما رمزين طبيعيين على القسوة والظلم الذي أوقعه العدو الصهيوني على شعبنا الفلسطيني.[3]

في قصيدة بعنوان "رسالة من المنفى"

يقول فيها:

اللَّيْلُ –يا أماهْ- ذِئبٌ جائعٌ سفَّاحْ

يطارِدُ الغَريبَ أَينمَا مَضَى

ويَفتَحُ الآفَاقَ للأَشْبَاحِ

وغابة الصفصافِ لمْ تزِل تعانِقُ الرّيَاح

مَاذَا جَنينَا نحنُ يَا أمَّاهْ؟

حتَّى نَموتَ مرَّتَيْن

فمَرَّةً نَمُوتُ في الحياةِ

ومرَّةً نموتُ عندَ الموتِ !

هل تعلمينَ ما الذي يملأُنِي بكاءْ؟[4]

هل تذكرونَ دموعَ هاجرْ أوَّلَ امرأةٍ بكتْ في هجرةٍ لا تنتهِي؟

يا هاجرْ، احتفلِي بهجرتِي الجَدِيدَة مِن ضُلوُعِ القبرِ

حتى الكون نهَضَ

يسْكُنْ الشُّهَدَاءْ أَضْلاَعِي الطَّلِيقَةِ

ثم امتشِقْ القبورَ وساحِلَ المتوسطِ

---

1 محمود درويش، الأعمال الشعرية الجديدة، رياض الريس للنشر والتوزيع، بيروت، ط3، ص 400

2 محمود درويش، يوميات جرح فلسطيني، ص 141

3 المصدر نفسه، ص 142 بتصرف

4 محمود درويش، قصيدة رسالة المنفى، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 180

احتفلِي بهجرتِي الجديدةِ[1]

وهكذا يقدم صورة ساخرة لموقف الأنظمة المتفرجة على قوافل الشهداء، ورحيل الفدائيين الفلسطينيين من خطوط المواجهة مع العدو الصهيوني، وقد أخذت المعاناة في شعر محمود درويش أشكالا ورموزا عديدة، وقد استطاع توظيف عناصر الطبيعة الفلسطينية: كالليل، والبحر والريح والعواصف، والدخان والغبار والزلازل والأمطار، والغيوم، والقمر، والشمس، والنار، والأشباح والصليب وغيرها.[2]

يقول من قصيدة بعنوان "يوميات جرح فلسطيني" مصورا عمق الجراح والمأساة والمعاناة.

صوتُكَ اللَّيْلة[3]

سَكِينٌ وَجُرْحٌ وضِمَادْ

ويصور الليل رمز الظلم والموت والقهر الصهيوني في قصيدة بعنوان: "مديح الظل العالي" في أكثر من موضع، يقول:

لَيْلٌ طويلْ

يرصُدُ الأحْلاَمَ فِي صَبْرَا

وصبرَا نَائِمَة

صَبْرَا بقَايَا الكفِّ فِي جسدٍ قتيلْ

ودَّعَتْ فُرسانَهَا وزَمَانَهَا

واستسلمَتْ للنَّوْمِ منْ تَعَبٍ، ومِنْ عربٍ رَمُوهَا خَلْفَهُمْ

صبرَا، وما ينسَى الجنُودُ الراحلونَ منَ الجَلِيلِ

لا تشتَرِي وَتَبِيعُ إلاَّ صَمْتَهَا

مِنْ أَجْلِ وَرْدٍ للضَّفِيرَةِ

صبرَا تُغَنِّي نِصفها المفقُودْ بَيْنَ البَحْرِ والحَرْبِ الأخيرَة

لمَ تَرحلُونَ

---

[1] محمود درويش، الأعمال الشعرية الجديدة، ص 401

[2] المصدر نفسه، بتصرف، ص 402

[3] محمود درويش، يوميات جرح فلسطيني، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ص 140

وتَتْركوُنَ نسائَكُم في بطنِ ليلٍ منْ حديدٍ؟[1]

وتأخذ المعاناة رمزا آخر عند محمود درويش وهو "البحر" الذي ضرب به المثل في الخير والعطاء والكرم والتطهير، غير أن شاعرنا يشحن هذا الرمز بدلالات مختلفة عما هو مألوف عنه، يجيء رمزا للضياع والظلم والقهر والتسلط، يقول من قصيدته مديح الظل المالي:

بَحْرٌ لأيلولَ الجَديدِ، خَرِيفُنَا يَدْنُو مِنَ الأَبْوَابِ
بحْرٌ للنَّشِيدِ المُرِّ هيَّأنَا لِبَيْرُوتَ القصيدةَ كلَّهَا
بحرٌ لمنتصف النهارْ
بحرٌ لرَايَاتِ الحمامِ، لظِلِّنَا لِسلاَحِنَا الفَرْدِي
بحٌر للزَّماَنِ المُستعَارْ
ليديْكِ، كمْ مِنْ مَوْجَةٍ سَرِقَتْ يديْكَ
مِنَ الإشاَرَةِ وانتظاَرِي
ضَعْ شكْلنَا لِلْبَحْرِ، ضعْ كِيسَ العَوَاصِفِ عِنْدَ أَوَّلِ صَخْرَةٍ
واحْمِلْ فَرَاغُكَ... وانْكِسَارِي[2]

فالبحر عند شاعرنا رمز الشتات والرحيل والهجرة، كما هو رمز للعدوان الغاشم والطغيان وهي واضحة في هذا المقطع،إذ تنبعث من البحر رائحة الشتات الفلسطيني منذ الهجرة سنة 1948م، مرورا بهجرة 1967م، وحتى الإجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982م.[3]

5- صورة الآخر / السجن:

عاش محمود درويش حقيقة السجن، إذ ذاقه منذ حداثته مرارا بسبب أغانيه المفعمة بالتحدي والغضب والتي تدافع عن الشعب الفلسطيني وعبير البرتقال، ظن العدو الصهيوني أنه يستطيع أن يسكت حنجرة الشاعر باعتقاله في السجن، بينما لا يخرج

[1] محمود درويش، مديح الظل العالي، رياض الريس للنشر والتوزيع، ط1، 1983، ص 60
[2] محمود درويش، مديح الظل العالي، الجزء الأول، ص 70
[3] المصدر نفسه، ص 71

صوت الشاعر من فمه، بل يخرج من قلبه، وكما يقول درويش، "الشعر دم القلب ودموع العين صوت الشاعر صوت الحرية وصوت الأرض، لا يمكن أن يحبس في زجاجته".[1]

إذن ليس من دفاتر الشعر ووضع التراب على فم الشاعر وشد السلاسل على يده مانعا في سبيل مقاومة درويش لأنه إذا اشتدت يداه وملئ فمه بالتراب يغني بلسان مليون عصفور على أغصان قلبه ويكتب أبياته بالأظافر والمحاجر والخناجر والسجن لم يبعده عن الناس والأشياء وهو يحكي قصة احتلال وطنه في كل مكان في غرفة التوقيف وتحت السوط والقيد.[2]

يقول:

شَدُّوا وِثَاقِي
ومَنَعُوا عليَّ الدفاتِر والسَّجَائِر
وَضَعُوا التُّرَابَ علَى فَمِي
فالشِّعْرُ دَمُ القلبِ
ملحُ الخُبْزِ
سَأَقُولُهاَ[3]

يقدر درويش تحمل ألم السجن إذ أنه يريد أن يعيش حرا تحت ضوء عين وطنه ويرجو الرجوع إلى مهد طفولته، ولهذا نجد في حبسياته روح الأمل بالحرية والعودة إلى حضن الأم، غير السجن وجهة نظره وزاد قيمة كل شيء عنده.

وهو في السجن ينظر إلى كل شيء بالنظر الجديد، فصار القمر أحلى وأكبر في السجن، وصارت رائحة الأرض عطرا له، وطعم الطبيعة سكرا له، إنه يرى حريته على سقف السجن، وهي مصلوبة على النار، يصرخ بكل آناته ويخبر الجلاد بعودته

[1] رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، دار الهلال، ط2، ص 90
[2] المرجع نفسه، ص 91
[3] نفسه، ص 91

وتحرير المسجونين وموت أحزان السجن بعد أن يسترجع الزيتون خضرته ويمر البرق في وطنه.[1]

يقول درويش في قصيدته "صوت من الغابة":

كنتُ مَصلُوبًا علَى النَّارِ !

أقولُ للْغرْبَانْ: لاَ تَنْهَشِي
فرُبَّمَا أرجعُ للَّدارِ
وربَّمَا تَشْتِي السَّمَا
رُبَّمَا.... تُطْفِئُ هَذَا الخَشَبَ الضَّارِي !

[1] الموقع الإلكتروني للشاعر الراحل محمود درويش في قصيدته صوت من الغابة: www.mahmoud-darwish.com

قائمة المصادر و المراجع :

- القرآن الكريم برواية حفص

أولا : المصادر

01 - درويش محمود ، ديوان محمود درويش ، المجلد الأول ، دار العودة بيروت ، ط2 .

02 - درويش محمود ، قصيدة الكتابة على ضوء بندقية ، الأعمال اللأولى ، دار العودة ، بيروت ، د ط.

03 - درويش محمود ، قصيدة أمل ، الأعمال الشعرية الكاملة ، د ط.

04 - درويش محمود ، قصيدة بطاقة هوية ، الأعمال الشعرية الكاملة ، ط1 ، 2002

05 - درويش محمود ، قصيدة جواز سفر ، الأعمال الشعرية الكاملة ، ط2008، 3

06 - درويش محمود ، قصيدة رسالة من المنفى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، د.ط

07 - درويش محمود ، قصيدة يوميات جرح فلسطيني ، الأعمال الشعرية الكاملة ، د ط

08 - درويش محمود ، مديح الظل العالي ، رياض الريس ، للنشر و التوزيع ، ط1 ،1983 .

09 - درويش محمود ، الأعمال الشعرية الجديدة ، يوميات رياض الريس للنشر و التوزيع بيروت ، ط د

ثانيا : المراجع باللغة العربية .

01 - إسماعيل عز الدين الشعر العربي المعاصر ، قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية المكتبة الأكادمية ، ط5، 1994.

02 - بدران جمال ، محمود درويش ، شاعر الصمود و المقاومة ، الدار المصرية ، القاهرة ، ط1 . 1999

03 - بيضون توفيق حيدر ، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، دار الكتب العالمية ، بيروت ، ط1 ، 1991

04 - الجبر خالد عبد الرؤوف ، قراءات في شعر محمود درويش ، دار جرير للنشر و التوزيع ـ عمان ، ط1 1434هـ، 1996.

05 - الجزار فكري محمود ، الخطاب الشعري عند محمود درويش ، ط1 ، 2000.

06 - حمزة حسين ، دراسات في شعر محمود درويش ، دار المشرق للطباعة و النشر ، حيفا ، ط1 ، 2001

07 - الخير هاني ، محمود درويش رحلة عمر في دروب الشعر ، مؤسسة رسلان للطباعة و النشر ، سوريا ، ط1 ، 2005

08 - السلطان فؤاد ، القدس في الشعر العربي المعاصر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، د ط ، 1999

09 - الصباغ فؤاد ، القدس في الشعر العربي المعاصر ، دراسة جمالية ، دار الوفاء للنشر ، مصر ط1 2001 ، 1
10 - عبد الشافي مصطفى ، في الشعر الحديث و المعاصر ، دار الوفاء للطباعة و النشر الإسكندرية ، د ط 1998 ، 1997
11 - عبد عبود ، الأدب المقارن ، مدخل نظري و دراسات تطبيقية ، مطبعة المدينة ، د ط 1998 ، 1997
12 - عطية عبد الحليم أحمد ، جدل الأنا و الآخر ، دار عبد ربه ، مصر ، ط1 ، 1997
13 - القاسم أفنان مسألة الشعر و الملحمة الدرويشية مؤسسة عالم للنشر و التوزيع ، ط1 ، 1998
14 - كحوال محفوظ ، أروع قصائد محمود درويش ، نوميديا للطباعة و النشر ، الجزائر ، د ط .
15 - المسيري عبد الوهاب ، رحلتي الفكرية في البذور و الجذور و التمر ، ط1 ، 2000
16 - ندا طه ، الأدب المقارن ، دار النهضة العربية ، د ط ، 1412 ه / 1991 م
17 - النقاش رجاء ، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، دار الهلال ، ط1 ، 1971
18 - هلال محمد غنيمي الأدب المقارن ، دار العودة ، لبنان ، ط5 ، 1999
19 - اليوسفي محمد لطفي ، في بنية الشعر المعاصر ، سراس للنشر تونس ، ط 1
ثالثا : المراجع المترجمة .
01 - باجو دانيال هانري ، الأدب العام و المقارن ، ت غسان السيد ، منشورات إتحاد الكتاب العرب سوريا ، د ط 1997 .
02 - مادلين دافي ماري ، معرفة الذات ، نسيم نصر ، منشورات عويدات ، ط1 ، 1983
رابعا : المجلات
01 - مجلة الكرمل الجديد الفلسطينية ، أغسطس سنة 2012
02 - مجلة الكرمل الصادرة في قبرص العدد 21 / 22
03 - مجلة الكرمل العدد 21 / 22 ، الصادرة ببيروت ، عام 1986
04 - مجلة الموقف الأدبي منشورات الكتاب العرب ، سوريا ، 1997
05 - مجلة فصول ، المجلد السابع ، العددين الأول و الثاني ، أكتوبر سنة 1986
خامسا : المواقع الإلكترونية .
Phht /www.awu.dam.org
الموقع الإلكتروني للشاعر محمود درويش
www.mahmoud.darwich.com

إهداء

أهدي ثمرة سنين الدراسة و المثابرة إلى قرة عيني نرجس قلبي الذي شداه في فؤادي و علمني أن الحياة كفاح و مثابرة ، أخي و عطاء أبي العزيز أطال الله في عمره و أدام له الصحة

إلى من أرضعتني الحب و الحنان إلى من الحب و بلسم الشفاء إلى القلب الناصح بالبياض والدتي الحبيبة

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة و النفوس البريئة إلى رياحين حياتي إخوتي و أخواتي

إلى قناديل البيت و البراعم الصغيرة ريان ، مريم ، وسيم ، محمد ، أروى ، مرام إلى من تذوقت معهم أجمل اللحظات أصدقائي إبراهيم ، حبيب تواتي و خاصة صديقتي " نادية " و " زهية "

إلى من لم تبخل على توجيهي و إرشادي أستاذة " طانيا " و إلى جميع الأساتذة الكرام .

و إلى طلبة كلية الآداب و الفنون خاصة دفعة الأدب الغربي 2016

الخاتمة

إن رحلة البحث التي خضتها حول صورة الأنا والآخر في شعر محمود درويش والتي جعلتني أقف عند الكثير من علامات الاستفهام، قادتني إلى حقيقة كون تجربته الإبداعية في هذا المضمار لا تخرج عن الطبيعة الإنسانية بوجه عام والتي تفترض وجود كيانين موضوعيين مستقلين هما الأنا والآخر، ولا يمكن للأنا أن تكشف نفسها أو تحقق كينونتها بمعزل عن الآخر فهو يشكل عنصرا مهما في صميم وجودها.

1- تعكس التجربة الشعرية الدروشية قدرا كبيرا من سعي الأنا نحو معرفة ذاتها لتحقيق خصوصيتها وإثبات هويتها، بطرح رؤية محددة تتصل بالأصل وتقوم على العودة إلى الثقافة الأصلية في تكوين الشخصية المعاصرة، ومواجهة الدعوة إلى تذويب الهوية لصالح قيم الآخر.

2- أدى تمسك الأنا بقيمها الأصلية وعجزها عن ممارسة إلى تصدع العلاقة بينها وبين الآخر، فاغتربت نتيجة اتساع الهوة بين واقعها الداخلي وما تأمل في تحقيقه وواقع الآخر المرير البعيد عن طموحاتها وانتهى اغترابها إلى حالة من الرفض والمقاومة والصمود من الآخر.

3- انطلق الآخر في تشكيل صور للأنا من رؤى مشوهة وحقائق مقلوبة عمد إليها حتى يتمكن من فرض ثقافة السيطرة والإحتلال ومن تم بدا متمركزا حول ذاته مستبعدا الأنا متخذا موقفا منغلقا تجاهها.

4- حاولت الانا في كل مرة التصدي لمحاولات الآخر في فرض انتصاره عليها من خلال إثبات مقاومتها والسعي إلى تغير هذه الصور والتأسيس لنمط جديد.

5- صورة الذات التي يعلن عن حضورها النص هي ذات جماعية تتجاوز هواجس الأنا الفردية وتداعياتها الخاصة إلى هموم النحن وتطلعاتها الأصلية، وهي جماعية.

6- صورة الأنا والآخر في شعر محمود درويش صورة مركبة ومتطورة وليست صورة بسيطة ساكنة ذلك أن الآخر يمثل معطى مسلما وإنما هو كل كيان مختلف

يصدر عن الغيرية فقد يكون شخصا أو مجموعة من الناس، أو مجتمعا، أو حتى فكرة، كما أن الآخر متعدد فإن صورة الأنا تنمو وفق تطور صورته، والسبب في ذلك هو طبيعة الصورة في حد ذاتها التي تتصف بالديناميكية والمرونة، فالشخص يتطور دائما لأنه يتطور مع نمط الحياة.

7- كان شاعرنا على درجة عالية من الوعي والثقافة والنضج الفني مما جعل قصائده نابعة من مشاركة عاطفية وفكرية معا، فكان شاعرا وناقدا وقارئا في الوقت نفسه.

8- أثبت محمود درويش أن شعرنا العربي قادر على استيعاب واقع المعاناة المأساوي وأبعاده.

9- استخدم محمود درويش التراث الإنساني كله، وأحسن توظيفه بما في ذلك التراث اليهودي.

10- لم يكن شاعرنا رغم المعاناة سوداويا أو متشائما في شعره فلم يزده الألم والمعاناة إلا صمودا وتحديا.

هذه بعض النتائج والملاحظات التي أمكن الوصول إليها، وأنا على ثقة أن عملي هذا لم يحقق كل الرجاء ولكن عزائي أنني ربما فتحت نافذة على "محمود درويش" شاعر القضية الفلسطينية الذي يستحق وقفة أخرى بل وقفات لما يحمله شعره من قضايا وطننا الحبيب "فلسطين".

وانتصار الحق الفلسطيني بإذن الله مهما بلغت وحشية الصهاينة وسيطرتهم عاجلا أم آجلا.

قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم برواية حفص.

أولا: المصادر:

01 -درويش محمود، ديوان محمود درويش، المجلد الأول، دار العودة بيروت،ط2.

02 -درويش محمود، قصيدة الكتابة على ضوء بندقية، الأعمال اللأولى، دار العودة،بيروت،د ط.

03 -درويش محمود، قصيدة أمل، الأعمال الشعرية الكاملة،د ط.

04 -درويش محمود، قصيدة بطاقة هوية، الأعمال الشعرية الكاملة،ط1 ،2002.

05 -درويش محمود، قصيدة جواز سفر، الأعمال الشعرية الكاملة،ط2008،3.

06 -درويش محمود، قصيدة رسالة من المنفى، الأعمال الشعرية الكاملة، د ط.

07 -درويش محمود، قصيدة يوميات جرح فلسطيني، الأعمال الشعرية الكاملة، د ط.

08- درويش محمود، مديح الظل العالي، رياض الريس، للنشر والتوزيع،ط1983،1.

09 -درويش محمود،الأعمال الشعرية الجديدة،يوميات رياض الرِّيس للنشر والتوزيع بيروت،د ط.

ثانيا: المراجع باللغة العربية.

01- إسماعيل عزالدين الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، المكتبة الأكادمية،ط1994،5.

02- بدران جمال، محمود درويش، شاعر الصمود والمقاومة، الدار المصرية، القاهرة،ط1،1999.

03- بيضون توفيق حيدر، محمود درويش شاعر الأرض المحتلّة، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1،1991.

04- الجبر خالد عبد الرؤوف ،قراءات في شعر محمود درويش،دار جرير للنشر والتوزيع، عمان،ط1430،1هـ/2009م.

05- الجزار فكري محمود ، الخطاب الشعري عند محمود درويش ،ط2000،1.

06- حمزة حسين، دراسات في شعر محمود درويش، دار المشرق للطباعة والنشر، حيفا ط1،2001.

07- الخير هاني، محمود درويش رحلة عمر في دروب الشعر، مؤسسة رسلان للطباعة والنّشر، سوريا،ط1، 2005.
08- السلطان فؤاد، القدس في الشعر العربي المعاصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، د ط، 1999.
09- الصباغ رمضان، في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة جمالية، دار الوفاء للنشر، مصر،ط1،2001.
10- عبد الشافي مصطفى، في الشعر الحديث والمعاصر، دار الوفاء للطباعة والنشر الإسكندرية، د ط ،1998،1997.
11- عبده عبود، الأدب المقارن، مدخل نظري ودراسات تطبيقية، مطبعة المدينة، د ط،1998،1997 .
12- عطية عبد الحليم أحمد، جدل الأنا والآخر، دار عبد ربه،مصر،ط1، 1997.
13- القاسم أفنان مسألة الشعر والملحمة الدرويشية، مؤسسة عالم للنشر والتوزيع،ط1،1998.
14- كحوال محفوظ ، أروع قصائد محمود درويش، نوميديا للطباعة والنشر، الجزائر، د ط.
15- المسيري عبد الوهاب ، رحلّتي الفكرية في البذور والجذور والتمر،ط1، 2000.
16- ندا طه، الأدب المقارن، دار النهضة العربية، د ط،1412هـ/1991م.
17- النقاش رجاء، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة،دار الهلال،ط1، 1971.
18- هلال محمد غنيمي الأدب المقارن، دار العودة، لبنان،ط5 ،1999.
19- اليوسفي محمد لطفي ، في بنية الشعر المعاصر، سراس للنشر تونس،ط1.

<u>*ثالثا:*</u> المراجع المترجمة.

01- باجو دانيال هانري ، الأدب العام والمقارن، ت غسان السيد، منشورات إتحاد الكتاب العرب سوريا، د ط ، 1997.
02- مادلين دافي ماري ، معرفة الذات، ت نسيم نصر، منشورات عويدات،ط1، 1983.

<u>*رابعا*</u>:المجلات.

01 -مجلة الكرمل الجديد الفلسطينية، أغسطس سنة 2012.
02 -مجلة الكرمل الصادرة في قبرص العدد22/21.

03 -مجلة الكرمل العدد22/21، الصادرة ببيروت، عام1986.

04 -مجلة الموقف الأدبي منشورات الكتاب العرب، سوريا،1997.

05 -مجلة فصول ، المجلد السابع، العددين الأول و الثاني،أكتوبر سنة1986.

***<u>خامسا:</u>* المواقع الإلكترونية.**

Phht//www.awu.dam.org

الموقع الإلكتروني للشاعر محمود درويش

www.mahmoud.darwish.com.

فهرس الموضوعات